

خُلاصَة
الْيَوْمَيَّةِ وَالشَّذَّافَ

عباس محمد العقاد

اسم الكتاب : الخلاصة اليومية والشذور

اسم المؤلف : عباس محمود العقاد

تاريخ النشر : ابريل ١٩٩٥

رقم الأيداع : ٤١٥٣ / ١٩٩٥

ترقيم الدولي : 3 - 0375 - 14 - 977 I.S.B.N

الناشر : دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع

القاهرة ج ٢٠٠٤

تلفون : ٥٩٠٩٨٢٧ / ٥٩٠٨٨٩٥ / ٣٤٦٦٤٣٤ / ٣٤٧٢٨٦٤ فاكس : ٥٩٠٣٣٩٥

ص . ب : ٩٦ الفجالة - ١٨ شارع كامل صدق القاهرة

مقدمة

يعرف قارئ العقاد أن كلام العقاد في أبسط الأمور وأهونها لا يقل شأنًا عن كلام العقاد في أعظم الأمور وأكثراها خطراً ، فالعقد هو العقاد في أبسط كتاباته وفي أكبرها شأنًا وذلك لأن العقاد عاهد نفسه منذ أمسك بالقلم أن يكون كتاباً مفيدة نافعاً وأن تكون حياته كلها التزاماً للقلم ولخدمته ولرعاية قضيائاه ، فالعقد لا يلتزم في كتاباته كما قد نقول في لغة هذه الأيام ولكنه يجعل حياته كلها إلتزاماً للقلم ورسالته .

هذا لا نكاد نشرع في قراءة هذه الفصول الأولى التي وبحها قلمه والتي رعاها بفكره في أول عهده بالقلم حتى نحس بأننا إزاء فصول تعب عن مكون فكره وجوهر مشاغله الفكرية والأدبية وحتى ندرك أبعاد روحه في تطلعها نحو اكتشاف الطريق الذي يليق بشخصه والذي يجدر به أن يتبعه وأن يتحقق من ورائه مهمة الكاتب الحريص على كرامته وعلى أسلوبه .

ولا تملك بعد إستعراض فصوله الأولى إلا أن نتعرف بأن العقاد لم يكن يتحسّن طريقه وحسب في هذه الفصول وإنما كان يرسم معالم خطط طويل من التفكير والجهد والتدبر والعناء فقد زج العقاد بنفسه منذ أول كلماته في خضم تيارات الفكر العالمية على نحو لم يسبق إليه مناقش مبادئ الفلسفة العويصية بأسلوبه المباشر الجميل وبعباراته العقلية الثمينة وتحدث عن جملة فلاسفة غربيين أبرزهم

شوبنهاور ونيتشه وعالج موضوعات تمس الاشتراكية وتمس كيان المجتمع واللغة والأدب والشعر والفن وتحدث كثيراً عن الأساطير اليونانية وحاول أن يصل بين الفكر العربي والفكر الغربي بأسباب ووسائل وحصن النشء على أن يغترفوا من مناهل العلوم الأوروبية المستحدثة وأساليبها الشمية .

ولم يأت ذلك كله عرضاً في حياة العقاد لأنَّه توسم في نفسه منذ البداية أنه قادر على أن يخلق شيئاً جديراً بإهتمام الأجيال كلها وأن يضع اللبنات الأولى في بناء فكر مدعم بالعقيدة وبالأخلاق وبالقدرة النافذة مما لم يعهدَه المجتمع من حوله فكان الكتاب الأسلوبيون يملئون الصحف والمجلات والكتب في ذلك الوقت بأبحاثهم الإنسانية البحثية وبمقالاتهم الأدبية الحالية من الإهتمام الجاد ومن التركيز الفعال السليم ويقضون كافة وقتهم في إنشاء العبارات وإنشاءً وفي تحرير الأبواب على سنة القدماء فانبرى العقاد لهم يكره التقليد ويأنف من التعبير المرتجل و تستهويه العبارة الذهنية الهدافلة ويحاول أن ينير الطريق أمام شباب الجيل بأثره ليجد من وراء كلماته التموج الحقيقى لأسلوب الكاتب الذى يكره التقليد ويحارب التعبيرات المحفوظة وينأى بأسلوبه عن متابعة السلف وينفر من التكرار وتقسيع الجمل وترديد المترادفات وبطء التفكير ورتابة الفقرات ... يفعل العقاد ذلك كله من أجل ترسم خطى جديدة ومن أجل ابتعاث دماء شابة ومن أجل بث النضارة في الأفهام والعقول وفي الأقلام والكلمات .

ومن بداية الطريق يشعر القارئ بأن الكاتب نشأً ليعانى وخلق ليشق عباب تيار ضخم وليحمل أعباء التبعات والمسئوليات فى التوجيه والرأى فهو لا يكتب شأن غيره من كتاب ذلك الوقت ليرضى الكلمات بعضها إلى جانب بعض وإنما لينفذ إلى العقول وليبني خطة المستقبل ولهز المشاعر والقلوب .

ونحن إذا نقدم هذه الباقة من فكر العقاد وأدبه إلى جمهور القراء في اللغة العربية نهدف إلى إظهار بشائر فكرة في أول عهده بالكتابة حتى يتبيّنوا الجذور والبراعم الأولى التي أينعت فوق قلم العقاد وحتى يعرفوا أين وجد العقاد بداياته وأولى خطاه وسنعمل دائبين على إظهار كل مؤلفات العقاد التي لم يعد يعرفها القارئ بأن الكاتب نشأً ليعانى وخلق ليشق عباب تيار ضخم وليحمل أعباء التبعات والمسئوليات في التوجيه والرأى فهو لا يكتب شأن غيره من كتاب ذلك الوقت ليرضى الكلمات بعضها إلى جانب بعض وإنما لينفذ إلى العقول وليبني خطة المستقبل ولهز المشاعر والقلوب .

ونحن إذا نقدم هذه الباقة من فكر العقاد وأدبه إلى جمهور القراءة في اللغة العربية نهدف إلى إظهار بشائر فكرة في أول عهده بالكتابة حتى يتبيّنوا الجذور والبراعم الأولى التي أينعت فوق قلم العقاد وحتى يعرفوا أين وجد العقاد بداياته وأولى خطاه وسنعمل دائبين على إظهار كل مؤلفات العقاد التي لم يعد يعرفها القارئ الحديث خدمة لفكرة وحرصاً على أن تتم صورة العقاد في أذهان محبيه من أول عهده بالقلم إلى آخر حياته .

محمود أحمد العقاد

خلاصه الموسوعة

كلمة

«من أراد أن يقرأ عن الناس»
«والعالم مايسره فيخلق للكتاب»
«ناًساً جدّاً في عالم جدّد»

تدور هذه النبذة على نقط ثلاثة :

أولاً : أن كل ظواهر هذا الكون ، علوها وسفليها ، ظاهرها وباطنها نتيجة تفاعل «القوى» المختلفة . وكذلك الأمر في الاجتماع البشري .

ثانياً : إن اللذة والألم . وبعبارة أعم . المنفعة والضرر هما الدعامتان اللتان عليهما تقوم كافة الأخرق البشرية .

ثالثاً : إن الإنسان حيوان راق ولكنه لا يزال حيواناً . فمن كان فخوراً بعلمه شديد الإعتداد ب الإنسانية فهى لا تروقه وربما نفر منها طبعه . ومن كان يقرأ ليقتنع أكثر مما يقرأ ليرضى فإياه عنيت بنشر هذه اليوميات ؟

عباس محمود العقاد

الجامعة الإنسانية :

إن انفراد كل صنع بخصوصية تميزه عن سواه وتقديم الناس إلى الاشتراك جمِيعاً في الحاجة إلى تلك الخصوصيات بنسبة اتساع مطالبهم تبعاً لتقديم العمران مما يدل على أن كل الناس مرتبطون بكل الأرض وأن حواجز الأوطان ستطمس معالمها لتصير الأرض الوطن العام لنوع الإنسان .

وهذه الحركة الاقتصادية التي جاذبت بين أبعد الشعوب لتبادل المنفعة ستؤدي حتى إلى توحد المصالح العامة بين الأمم بحيث تتضامن كلها في الانفعال بالعوامل الاقتصادية التي تؤثر على بعضها وهو ما يؤذن بانقضاء الحروب وسيادة السكينة والسلام .

ومازالت العوامل الاجتماعية منذ القدم تهدف بالإنسان في دائرة أشبه بزبد الماء يتسع محيطها شيئاً فشيئاً فيشمل في كل دور ما كان خارجاً عنه في الدور الذي تقدمه ، فإن تكون القبيلة من العائلة والشعب من القبيلة والأمة من الشعب والجامعة من الأمة يؤذن بأن الخطوة التالية ستتقدم بنا إلى الغاية التي طالما اشتغل كبار المصلحين لتحقيقها . وهي دخول أم الأرض جمِيعاً تحت لواء جامعة واحدة . وهي الجامعة الإنسانية .

الفضيلة والرذيلة :

الفضيلة والرذيلة كلمتان لما اصطلح جماعات الناس على الاعتراف به أو انكاره باعتبار نفعه أو ضرره . والمعروف والمنكر وهو من

مرادفاتهما في العربية تؤديان هذا المعنى تمام الأداء . فما كان يعد فضيلة عند قوم يعد رذيلة عند قوم آخرين تبعاً لما ينجم عنه من النفع أو الضرر عند كل منهما . وربما العمل الواحد في الأمة الواحدة يعتبر فضيلة في هذا الزمن أو ذاك ورذيلة في زمن آخر .

الخطاط الشرق :

علة الخطاط الشرقيين انهم جعلوا لتنافع البقاء ميدانين فلم يبالوا أن يخسروا الصفة في هذا العالم ليغتموها في العالم الآخر . وساعدهم على ترك الاشتغال بشئون هذا العالم أن خصب الطبيعة في الشرق قد جعل طلب الضرورات المعيشية مملاً يلتجى إلى التدافع والزحام كما هي الحال في الاصقاع التي لا يأتى فيها استثمار الرزق وتوفير أسباب الحياة إلا بوسائل الكد والاستنبطاط . فكانت الدعة والرخاء من أكبر العوامل التي صرفتهم عن عالمهم إلى تطلب السعادة الكمالية في سواه .

جنون النبوغ :

إذا كان الجنون بنوع ما عبارة عن مخالفة ما جرى عليه العرف بين الناس فالنبوغ نوع من الجنون . فان النابغة يستهين بالتقاليد المرعية بين الجمهور لأنه لا يعرف وجهاً للتمسك بها إما لأنها عقيمة في ذاتها أو لأنها كانت صالحة أو ضرورية في زمن عن الأزمان ثم عادت غير ضرورية في الوقت الحاضر .

التشبيه الشعري :

ملكة التشبيه تقوى حيث تضيق دائرة الأشياء فإن المتكلم يحاول أن يقرب إلى سامعه مالا يعرفه وهو كثير بتشبيه بشيء مما يعرفه وهو قليل . ومن ثم كان أهل البدو والريف أقدر على التشبيه من الحضريين وسكان الأمصار . ولقد كان الشاعر دائمًا أسبق من العالم في التاريخ فإن الإنسان يحس أولا ثم يفتكر . فتسخو القرائح في عهد البداوة وينبغ الشعراء في الأنجاء التي لم يستبحر فيها العمran أكثر مما يبغون في غيرها .

إرادة المصري :

المصريون لم يشعروا بافتقارهم إلى الإرادة إلا بعد أن قسرتهم المزاحمة الأجنبية على الأعمال التي للإرادة دخل فيها . فاما قبل ذلك فكانت أعمالهم من أغنى الاعمال عنها . فلا اعتدال الجو ولا ارتفاع النيل ولا امتناع الآفات ولا جودة المحصول مما يترتب على توجيه إرادة الزارع . بل كل ما يحتاج إليه في صناعته شغل آل شاق بعيدا عن إشراف القوى العقلية .

بقايا الحيوانية في الإنسان :

العواطف عبارة عن انفعالات جسدانية لا سلطان لأعمال العقل عليها . وهي في الإنسان راجعة إلى أقدم عهده بالهمجية بل بالحيوانية الأولى كانت كل أمياله وأطواره أفعالا تقوم بها وظائف جسده من تلقاء نفسها حسب مطالبها من سد جوعه أو قضاء شهوة أو رى ظمأً أو دفع أذى . فالرجل الهجمي ومثله الجاهل الفطري ليست

مدركته إلا مجموعة إحساسات عالية أو خصيصة ليس للنظر والتروى مجال بينها . وما كان في جميع حالاته إلا آلة تهدف بها طبيعته حيث شاءت . ولكنه في المجتمعات الراقية حيث يرتبط الرجل مع بقية الأفراد بواجبات وأصول جبرية ولا يعود حيواناً مرسلاً مع أهوائه وشهواته ، يضطر بحكم البيئة إلى الضغط على عواطفه انصياعاً لأحكام المصلحة والعقل ويزداد كلما ازداد الإنسان حاجة إلى التعقل والاستغناء عن قوة الساعد في حفظ ذاته .

فالقليل الذي بقى من عواطفنا وأميالنا اللدنية التي لا تجينا إذا سألناها لماذا ، مصيره إلى التوارى والاختفاء حتى يسود حكم العقل على جميع أعمال الإنسان .

العمل والأمل :

الغربي والشرق يتشابهان في أن لكل منها غرضاً من حياته ولكنهما يتفاوتان في التوفيق بين الامل والقدرة على تحقيقه . فالغربي إذا طمع إلى أمر عمد إليه من طريقه فالجندى يحاول أن يكون قائداً والمدروز تاجرًا والصانع صاحب معمل وهلم جرا . أما الشرق فامله مبهم غامض لا تتميز له وسيلة ولا تتضح إليه سبيل . يحب كل إنسان أن يكون أحسن إنسان كما لو كان يحب ذلك لإنسان سواه . أى من غير أن يأخذ للأمر اهتمام أو يدبر له عدته . فكثير في أقصاصينا ذكر أمثال فص شبيك لبيك وبساط الربيع وطاقة الإخفاء وقضيب السحر ومسحوق الكيمياء وغيرها مما يرد في ألف ليلة والأحاجى التي يقصها عجائتنا على أسماع صغارنا قبل أن تفتح لهم أبواب

الآمال ، فينشأون على التراثي والتوكّل وترك تحقيق أمانهم إلى الصدفة والاتفاق .

الفيلسوف :

- ليس الفيلسوف صاحب المذهب الشاذ أو المبدأ الغريب ولا هو بالرجل الواسع الاطلاع أو المتفوق على غيره في ملكاته وموهبة . الفيلسوف الحقيقي هو الباحث الذي لا ينشد إلا الحقيقة . ينشدتها لا ليراها في شكل منتظر أو هيئة مرموقة أو ينظر إليها في ظل مبدأ من المبادئ فيكفيها كما ترسم مخيلته وتوحي إليه موروثاته ومعتقداته وأغراضه . ولكن لظهور أمامه كما هي بالوجه الذي تظهر به في كل آن . عارية عن غواشى البراقش والزركسات ، وهو المفكر الذي لا يتسلط عليه رأى من الآراء أو يملك ذهنه غرض من الأغراض بل يأخذ في البحث سواء لديه على أي نتيجة طلع منه . فليس فيلسوفاً ذلك الباحث الذي يقدم على موضوعه برأى مبدئي يتسيّع إليه فيما هو بصدده أو ذلك السفسطائي الذي لاهم له من أحاجاته إلا أن يجد له برهاناً يسند إليه ماتلقاه من غيره عن طريق الوراثة أو التلقين .

الحسد :

ليس الحاسد هو الذي يطمع أن يساويك بأن يرقى إليك . بل هو الذي يريد أن تساويه بأن تنزل إليه . ومن هذا القبيل الرجل العياب الذي يتبع عورات الناس وسقطاتهم لينزل بهم إلى مستواه ويتجاهل عن حسناتهم عمداً لأنه يعلم من نفسه العجز عن الإتيان بمثلها .

المطالعة والتجارب :

التجارب لا تقرأ في الكتب ولكن الكتب تساعد على الانتفاع بالتجارب .

الشعر والألفاظ :

الشعر صناعة توليد العواطف بواسطة الكلام . والشاعر هو كل عارف بأساليب توليدها بهذه الواسطة ، يستخدم الألفاظ والقوالب والاستعارات التي تبعث تواً في نفس القارئ ما يقوم بخاطره أى الشاعر - من الصور الذهنية . والألفاظ نوع من اختزال المعاني تشير إلى مالا يمكن وروده منها على اللسان أو هي رموز يقترن كل منها بخواطر وملابسات تتيقظ في الذهن متى طرقه ذلك اللفظ ولا يشترك في المدلول تماماً . والكلمة في لغة لا تفيق معنى مقابلتها في لغة أخرى . فليست المعاني منطوية في احرف كلماتها ولكنها ترمز إليها ولا مجرد النطق بكلمة يكفي لاستحضار معناها عند كل من يسمعها على السواء . فتختلف الكلمة الواحدة في قوة استحضار المعنى باختلاف مدلولاتها وملابساتها عن السامعين والتقطن إلى هذا الفرق الدقيق بين معانى الألفاظ والتلطف في آداء كل منها في موضعه يدخلان في الملة التي يحتاجها الشاعر ليكون شاعراً مجيداً ولا بدّ لها من أن يكون للشاعر استعداد فطري لتقى العوارض والمؤثرات التي تقع تحت شواعره حتى يلم بأسرار النفس وكيفية تطرق الاحساسات المختلفة إليها . وأن يكون قد انطبع في ذهنه نخبة من صور تلك الاحساسات ممثلة في قوالب جماعة من فحول الشعراء ليعلم

بالمقارنة بينها أيها أحکم تمثيلاً وأبلغ وقعاً وأسرع توجهاً إلى العاطفة المخاطبة به حتى يتسعى له أن ينقل ما يشاء منها إلى نفس غيره . ولا يحتاج الأمر في الشعر إلى الجلاء والإبانة كما هو في التر فإنـه كما تقدم يقصد به التأثير ولا يقصد به الاقناع . والعواطف قد تتأثر بالعبارة المفاجئة أشد من تأثيرها العبارة ذات القضايا المرتبة والمعانى الجلدية . فقل أن ترى كبار الشعراء يتتكلفون الشرح والتفصيل فيما يريدون الأعراب عنه كما يتتكلفهما المبتدئون منهم لأنهم أنـه أخبر بوسائل التأثير واعرف بالألفاظ التي لها وقع أبلغ من غيرها على الاحساس .

حب الظهور :

الشغف باستلفات الأنظار بشكل عام بين جميع الناس ولكن منهم قوماً يظهر كأنـهم يطلبوـه بالاستـهم وقوماً كأنـهم يحرزونـه بالرغمـ منـهم ومنـ الناس .

التعصب الديـني في المستـقبل :

طبيعة الدين ليست عدائية وإن ظهر لأول وهلة كأنـ في هذا القول شيئاً منـ المخالفة للواقع .

حفظـ الذاتـ أقوىـ غرائزـ النفسـ الإنسـانيةـ . والعـواطفـ المـتـفرـعةـ عنـهـ أقوىـ العـواطفـ . تـحرـكـ الإـنسـانـ المؤـثـراتـ أولاًـ تـحرـكـهـ بـقـدرـ ماـ تـمـسـ هـذـهـ الغـرـيـزةـ . والإـنسـانـ بـطـبـيـعـتـهـ فـيـ حـالـةـ سـلـمـ معـ بـقـيـةـ النـاسـ ،ـ فالـنـزـاعـ عـارـضـ طـرـأـ منـ اـشـتـراكـ اـنـسـانـينـ فـأـكـثـرـ فـيـ الـحـاجـةـ إـلـىـ الـعـروـضـ الـخـارـجـيـةـ ،ـ وـأـنـ مـجـرـدـ وـجـودـ تـلـكـ الـعـروـضـ بـحـالـةـ لـاـ يـظـفـرـ بـهـ الـأـمـرـ

غلب ، بين فريقين متساوين في الحاجة إليها وعدم الاستغناء عنها ، يحسب في ذاته إعلانا من كل منهما صریحا باشهار الحرب إلى أن يظفر أحدهما بحاجته .

فالدين باعتباره عقيدة مجردة لا يقتضى نزاعاً بين الناس . إلا إذا تجاوز حيز العقائد إلى الأشياء الخارجية التي تدخل في معاملات الإنسان . كما يشاهد في الأمم المتأخرة التي تجهل العلاقة الحقيقية بين الأسباب والمسبيات والعلل والمعلولات . وأكثر ما يشاهد ذلك في أم القرون الوسطى وما تقدمها من عصور الكهانة والسحر .

فقد مر عهد ليس بالبعيد كانت الصلة بين العاطفة الدينية وغريزة حفظ الذات من أحكام الصلات . لا بالنظر إلى مستقبل الإنسان في العالم الآخر فقط بل بالنظر إلى حياتنا في هذا العالم أيضاً . فكان فرعون وشعبه يشربون دمًا أحمر من نيلنا العذب لأنهم لم يشاؤا أن يدخلوا في دين بني إسرائيل .

كان كل شيء في ذلك العهد إنما يحدث باشراف القوى الخفية مباشرة . فكان للسحاب عمال يسوقونه من بلد إلى بلد ، وللرياح والبحار خزنة يصرفونها بتقدير ويسكونها بتقدير ، وكانت العوارض السماوية من كسوف وخشوف وهالات ومذنبات ورجوم ترصد من الأرض تارة كأنها إنذار السخط وتارة كأنها علامة الرضى ، وكانت الطواعين والأوبعة والمجاعات والصواعق والزلزال والطوفانات وغيرها من الجواهر الطبيعية تفسر كأنها نعمة الله حاقت الجنس البشري عقاباً له على طغيانه وعصيائه . أما استنزال هذه البلاء -

فمع كونه كان مترتبًا على مخالفة الإرادة الإلهية - فإنه من حق طائفة اصطفاها الله من بين خلقه واحتضنها بعلم ما يرضيه وما يسخطه فلا ترد لها كلمة عنده ففي ذلك العهد الحافل بكل هذه الجهالات ما كان من الغريب أن يندفع الناس إلى الشقاق بسبب الدين ، بل في الحقيقة بسبب كل شيء ومن أجل كل شيء يمكن أن يكون باعثًا على الشقاق . لأن هذا كان معنى الدين في تلك العصور .

الحروب الصليبية :

ويظهر في مبدأ الأمر كأن العقل الإنساني استر وكأن الضمير العام تنحى عن عمله ردحًا من الزمن ثارت في أثنائه الحروب الصليبية بكل غرائبيها التي اغرب ما فيها أن يمر بها الإنسان قرناً ولا يدرك مقدار فظاعتها وشناعتها .

والعقل الإنساني لم يستر ولا تخدر بل كان على أتم ما يكون عليه عقل الجاميع في مثل تلك الأيام . فكان الصليبيون يعاودون الكرة في كل حملة بعزم متجدد وأسف على فوات الفرصة منهم في الحملة التي تقدمتها لا شائبة فيه للندم . فلم تكن تلك الحروب ثورات حتى أو اندفاعات حماسة دينية وإنما هي حروب أصولية لم يفتها شيء مما يسبق حروب اليوم من التدبر وأعمال الروية في جوهرية الأسباب وقيمتها من الأهمية . ونحن نغالى في تزكية أنفسنا إذا ظننا أننا تصنع غير ما صنعوا لو أننا كنا موضعهم محاطين به مثل الظروف التي كانوا محاطين بها .

فهذا العالم الذي نراه أمامنا كان في نظر آبائنا عالماً مسحوراً

الباطن فيه أكثر من الظاهر . فكان مقسوماً إلى منطقتين . استولى الله على أحدهما وتنازل للشيطان عن الأخرى . والناس مختلفون في رقم خريطته فما كان عند هذا الفريق من منطقة الله يعده الفريق الآخر من منطقة الشيطان .

فالصلبيون أغروا على المشرق ليستخلصوا علم الله المقدس من حوزة أعدائهم . ولو سكتوا عنه لما كانوا أهلاً لأن يختارهم الله و يجعلهم شعبة ، ولا يرضون ذلك لأنفسهم إلا إذا رضوا لها أن يجردوها من كل صفات النخوة والشهامة وهي كل ذخر الرجل وفخره في ذلك الزمان .

ومع ذلك فالخيار بين الرضاء بهذه المسية وبين فظائع الحروب الصليبية لم يكن بالأمر العسير لولا خشية العقاب . فاي بلاء وأي شقاء لا ينزله الله بهذا الذي ينفض من حول علمه ويتركه لأعدائه !! أن أحبط المسى واحمال الزرع وتفشى الوباء أقل ما يتوقع من الجزاء على هذا النكوص المعيب !

وقد كانت العداوات تستقر وتهداً بعد الواقع الأولى لولا أن انقسم العدوان المقاتلان بطبيعة الأقليم إلى شطرين - شرق وغرب متقدم ومتاخر . ضعيف وقوى . طامع ومطموع فيه . شطرين بطبيعة موقعهما لا يمكن إلا أن يتجدد العداء بينهما كلما عرضت أسباب الخلاف . وهي كثيرة لا تخلو منها معاملة من معاملاتهم المتبادلة .

التعصب في العصر الحاضر :

هل يخشى أن تعود الإنسانية إلى مثل هذه المواقف في الأجيال المستقبلة .

كلا ! فالدين قد نصلت صيغته عن العروض الخارجية . تقدمت العلوم الطبيعية فعرف الإنسان علل الأشياء وكيف ولماذا تحدث وايقن أنها لا تحدث من أجله ولا من أجل عمله . لم يعد رجال الدين وكلاء اشغال الله على الأرض يبيعون الرحمة والرزق لعباده بمال ، وفي وکالاتهم وحوانيتهم التي يسمونها المساجد والكنائس . ولكنهم انقلبوا رجالاً كبقية الرجال ليس فيهم من السر إلا ما في كل إنسان . عرف الإنسان من أين تأتيه المنفعة ومن أين تأتيه الخسارة وأدرك أن تلك الطائفة لا يدها على هذه ولا على تلك . وأنه لا يحق له أن تبحث عن السبب في كل تصرفاتها أو تقصيره فيما هو آخر فيه . عرف أيضاً أن الأديان لا تجعل الإنسان نجساً بطبعته ولا ظاهراً بطبعته فهو لا يطلب من الإنسان كيما كان معتقده الديني إلا ما تقتضيه انسانيته وهي لا تستلزم أن يكون مسلماً أو مسيحيّاً أو يهودياً ولكن كل ما تستلزم أن يكون عضواً عاملاً في بنية الهيئة الاجتماعية . وبعد أن كان كلّه في قبضة ما وراء المادة أصبح للمادة كلّه . وارتدى الدينيات من العقل إلى زاوية ضيقة بعيدة عن مشاغل الحياة وعلاقتها بالإنسان ، ومن الأرض إلى بقاع مقصورة على المعابد والمساجد والبيع . وهكذا كلما انحرف الدين عن بقعة عادت مجال وفاق ووئام بعد أن كانت ميدان نضال وخصام .

تقليد النساء :

النساء أسرع تقليداً لأنهن أشد غيرة . وهن أشد غيرة لأن المشاكلة بينهن في المناقب والمفاخر أقرب مما هي بين الرجال .

دلالة القصص على درجة الأفكار في الأئم :

من العلامات على انحطاط الفكر ولو عه بالإغراق والاغراب فإن ذلك ليس معناه في الحقيقة إلا الجهل بحقائق الأمور . ولذلك يعمد القصاصون والرجالون في الشعوب المتأخرة إلى تجسيم الحوادث والبالغة في وصف أبطالهم والتهويل في الأخطار التي يفلتون منها وتكبر المغامرات التي يصادفونها على غير انتظار والمشقات التي يلاقونها في السياحات والأسفار لعلهم أنهم لا يتمكنون من استفزاز استغراب قرائهم بغير ذلك . فيتوهم القارئ وهو يتصرف إحدى تلك الاقاصيص أن صاحبها يتكلم عن أناس من غير هؤلاء الناس وأنهم يقطنون بلاداً ليست كهذه البلاد بخلاف قصص العصريين فإنها لا تتضمن إلا وقائع يكاد يشاهدها كل إنسان في البيوت وعلى قوارع الطرقات .

وعلى هذا القياس وبالغات الشعراء والمؤرخين فإنها تقل بقدر انتشار المعرف في الأمة وتقديم ابنائها في الوقوف على الحقائق والاهتمام بالجواهر دون الأعراض .

أخلاق الفرد والجماعة

الخلال الشخصية المستحبة لا يمكن أن تستمد أصولها من مصدر أشرف من كونها صالحة لحفظ الحياة . وكذلك الأخلاق الاجتماعية

فانها لا ترد إلى أكبر من كونها لازمة لصيانة كيان الجمعيات البشرية . والجماهير تقدم رجل العموميات وأن كانت تنقصه الخلال الشخصية على رجل الخصوصيات وأن كان مستكملا من هذه الوجهة لأنها تستفيد من الأول بأكثر مما تستفيد من الثاني .

الجماعات والأغnam

طالما تذكرت أغنام السودان وأنا أقرأ نظرية جوستاف لوبيون في كتابه روح الاجتماع : «أن الجماعات أسلس قياداً من الأفراد» فإن قيادة شاة واحدة من تلك الأغنام عمل شاق يعي به اشداء الرجال مع أن سوق قطبيع كبير منها لا يحتاج إلى أكثر من ثلاثة أطفال صغار .

جوفة العالم

العالم بأسره يشترك في تمثيل رواية مضحكة وادعى مناظرها إلى الضحك أنهم لا يضحكون من أنفسهم وهم يمثلون كأنهم جادون فيما يعملون .

المضحكات

المضحكات ليست بالقليلة ولكن الذين يحسنون صناعة الضحك هم القليلون . فليس من الضروري أن نفتش عن رجل من أمثال أبطال موليير لنغرب في الضحك . فإن في كل رجل من الذين نراهم ونعاشرهم موطنًا للنقص وفي كل عمل موضعًا للكلفة والتصنع - والوادع الناعم البال ولو كان مغموراً بالشقاء ، ذلك الرجل الذي

يعرف كيف يفطن إلى مواطن الغرور والرياء من أعمال الإنسان فإنه لا يطبق فمه مدام يفتح عينيه .

الجمال والجلال

النفس الإنسانية يتنازعها عاملان قويان هما حب الحياة والخوف من الموت وبهذين العاملين يتعلق الشعور بالجميل والجليل . فالجميل كل ما حب الحياة إلى النفس وأظهرها لها في المظاهر الذي يبسط الرجاء فيها ويعتبر على الإغبطة بها . والجليل كل ما حرك فيها الوحشة وحجب عنها رونق الحياة . فالربيع والصباح والنور والصحة والشباب والحركة والمناظر الرائقة والخضراء والأبنية المزخرفة . كلها جميلة لأنها تنشئ الحواس وتذكرها بالحياة . والشتاء والليل والظلمة والمرض والهرم والسكون والقفار الخفيفة والأطلال الدارسة والصروح القوية المتينة التي تنبئ بتعاقب السكان عليها والمعابد والهيكل والقوى الطبيعية المائلة . كلها جليلة لأنها تقبض الحواس وتتمثل بالنفس إلى التضاؤل والضمة أمام رهبة الفناء وعظمية الطبيعة وضخامتها . الجميل مظاهر القدرة والجليل مظاهر القوة . والنفس تقابل القدرة بالإعجاب والقوة بالخشوع .

الاعتراف بالنقص

لا يعترف الإنسان بشيء مما يشعر بنقصه إلا إذا كان يريد أن يتوصل من ذلك إلى الإشتهر بنوع ما من الكمال . فروسو والقديس أوغسطين وهيني لم يذيعوا كل تلك الأسرار الخفية التي سردوها في اعترافاتهم - من غير أن يخشوا أن ينقلها سواهم على غير حقيقتها

أو تكون هناك ضرورة ماسة لإذاعتها - إلا طمعاً في الإتصاف بجزية الصراحة الفلسفية أو الدينية وهي أكبر في نظرهم من جميع تلك المزايا التي جردوا أنفسهم عنها بمحض اختيارهم .

الأطفال رجال صغار

نفوس الأطفال أصدق معرض تدرس فيه أخلاق الرجال فإن جميع ما يضحكنا من طباعهم كالأنانية والغرور الشديد والغيرة الحادة وحبهم المفرط لاستجلاب المدح والإعجاب يظل كامناً في نفوس الرجال . تتغير أشكاله ومواضعه من الألاعيب إلى العروض الحقيقة وهو باق لا يتغير وإنما يضطرون إلى مداراته لأنهم لا يجدون من يتحمله منهم كاً كان يحتمله آباءهم وأمهاتهم .

المساومة في التجارة

كثرة اللجاج والمساومة في بيوعنا تدل على أن تجارنا لا يحسبون حسابهم ولا يعنون بتقدير أرباحهم كما يوفق رؤوس أموالهم بل يدعونها عرضة لتقلبات الصدف إما إلى المكسب أو إلى الخسارة وربما رجع هذا الإهمال معظم السر في اضطراب السوق المصرية وتذبذب الأسعار بين الهبوط والصعود .

حماية العرض

لا يمتدح الرجل بأكبر من نسبة القوة إليه كيما كان مذهبة في تفسيرها . ولا يعبر بأكثر من اتهامه بالضعف كيما كان مذهبة في تفسيره . والرجل يشتند حنقه للإعتداء على عرض لأنه دليل على

استضعفه ووهن جانبه . فقد كان الرجل يحمى النساء من قديم الزمن لأنه أقوى منهن وكان المتصر فى عهد القبائل لا يعتر بقوته و يؤيد ظفره و تمام غلنته بأفه من سبى نساء القبيلة المغلوبة وقد كان النساء يعجبن بالرجل بقدر حظه من الصفات الالازمة لحمايتهم كالنخوة والبسالة والفروسيه والبطش والقوة فكان ميل المرأة إلى غير رجلها أو إغواء إمرأة في حوزة رجل إتهاماً له في ذات رجوليته ، ولذلك تشتد الغيرة على العرض في الأقوام الذين تنحصر صفات الرجالية بينهم في هذه المزايا الجسدانية . ولذلك أيضاً كانت الأم أكثر إغضاء عن ذلة فتاتها من أيها . وبعض قبائل الجاجة تغض عن المعتدى على عرضها متى خرج من غير باب الخص لأنهم يعتبرون ذلك إقراراً منه بالعجز عن مواجهتهم بالعدوان .

ثمرات اليراع :

إلا لا تعدن اليراعية آلة
تسوق لك الرزق الذي بت راجيا
يراع الفتى عود تعرى لحاؤه
ولا يشمر العود الذي عاد عاريا

منظر على عبر مرسح

كان صاحب هذه اليوميات في فندق (كتراكت) بأسوان حينما شاهد المنظر المحكى في هذه القطعة : نزلت بذلك الفندق بين السائحات في الشتاء الماضى فتاة كانت موضع إعجاب كل من رآها . وامتازت بشعرها الضافى الطويل على غير المألوف فى نساء الغرب .

وكانها أرادت أن تداعب عشاق جماحتها الكثيرين . فبرزت يوماً في شرفة غرفتها بأزار النوم وهي تمشط شعرها وقد جلل ظهرها وجانبها من صدرها ونادت بالغلام فأعطته مظلة ظاهرة كأنها تريد أن توصلها إلى أمها وأشارت له إلى سيده في ردهة الفندق فجعل الغلام يغدو ويروح ويعرض المظلة على سيدة بعد أخرى وهو ناظر إلى جهتها وهي تسير إليه فاستلقت هذه الحركة إليها الجالسين فما كادت تتتحول إليها أنظارهم حتى انفلتت إلى داخل الغرفة وأومأت إليهم برأسها من وراء الستار كما لفعل الممثلون وتركتهم يضحكون ويصفقون كأنهم يستعيدون هذا المنظر الشائق :

أشرت من جوانب القصر كالز
هرة لاحت من جانب الأفق سراً
في أزار يضم جسماً من البلور
ر أصفي ومن جنى الورد اطري
وتمشت فألقت السرير منها
كشعاع الأصيل في الصيف شرعاً
ثم نادت بناعم يشبه الفيشا
ر حراً ويشبه العود نيرا
زودت أمها بمسجاة^(١) خرز
ما تقى كاهواء للشمس حرا

(١) المسجاة كلمة رأيت أن أعرب بها ال (Parasol) وهي مظلة السيدات .

أرسلتها لها ولو علقتها
فوق أهداب شعرها كان أخرى
ووقتها شمساً ولو نشرته
في ذرى القصر أصبح الظهر فجراً
أم تراها لو خاطبت أختها الشمس
أكانت تعصى لها الشمس أمراً

تربيبة المرأة

لابن يعني أن يقتصر الغرض من تربية الفتى على تعليمها كيف تكون زوجة ، إلا إذا كنا نعلم الفتى في المدارس ليكون زوجاً . والواجب أن نعني أولاً بتعلمها ما تنشأ به امرأة قادرة على النهوض بنصف أعباء الهيئة الاجتماعية : فإن العشرة الزوجية ليست حرفه يتلقى الطالب أسرارها في دور التعليم ولكنها عمل كسائر أعمال الحياة يحسنها الإنسان أو لا يحسنها بمقدار ماله من الحذق والاختيار .

مذهب نيتشه

نيتشه عدو الضعف يريد أن يجعل العالم قوياً لا بتطهيره من الضعف ولا بأن يهتم بترقية علم الطب ولكن بما هو أيسر عليه من جميع ذلك . باستعمال الضعفاء منه . يصبح أشياعه أنبذوا الضعف ولا تأخذكم به رحمة لأن الرحمة تعاكس ناموس بقاء الأصلح في مهمته وتبقى على من لا يستحق البقاء .

ولكن من هو القوى ومن هو الأصلح للبقاء ؟؟
هذا مالا يمكن أن تعرفه من نيتشه ولا من اشياعه

إن القوى البدنية لم تعد ذات شأن في تمييز الصالح من غير الصالح فالضعف والقوى يدرآن عن نفسهما بصلاح واحد . وأضعف الضعفاء الذي لا يقوى على رفع أخف حمل عن الأرض في وسعه أن يقتل ستة من جبابرة المصارعين بتحريك أثقلته . ومع ذلك ففى أى وقت نبدأ بحصر الضعفاء والأقواء ؟؟ ومن ادراانا أن هذا السقىم الفانى الذى نقتله اليوم لا يصبح صحيحا معافا غدا خصوصا إذا نظرنا إلى ما يرجى من تقدم وسائل العلاج عاما بعد عام ، وأن هذا الغليظ الشديد الذى نبقي عليه لا يصبح مثله سقىما في يوم من الأيام .

ثم من هو الأصلح وكيف نعرفه وبأى معيار نقيس صلاحته ؟؟ ولما من نكل فرز الصالح من سواه ؟؟ وفي أى عمل نجربه . أفى عمل واحد أم نتركه حتى نردده على الأعمال . وهل نعتبر صلاحيته بالنسبة إلى فترة محددة أو بلد معين أم يكون ذلك بالنسبة إلى جميع الأزمان والبلدان .

ومن أدرى هؤلاء الجراحين الذين لا يحسنون غير البتر علاجا لعل الرحمة لا تكون من مقتضيات الرق الانساني ولو الزم الاجتماع البشري إذا كان أصلها غير مشاهد في الحيوان ؟؟

إن نيتشه واثياعه هم الذين يعاكسون بهذا التداخل ناموس بقاء الأصلح فإنهما بدلا من أن يتركوه مكينا على عمله ينفي الضار ويبيى النافع يعترضونه في وظيفته ويتحكمون فيما من شأنه واحده الفصل فيه .

تغريب المأثور

أصعب ما على النفوس تغريب مأثور . فلو كان هناك نازلة تلم بالإنسان من دون أن تغير شيئاً من مأثوراته لما أحس لها بألم . ولذلك تخف وطأة الحوادث ويهون وقعها على من تتوالى عليهم المصائب ويمارسون تقلبات الأيام .

ولو أن الرجل ينظر إلى غير الدهر إلى العوارض التي يستهدف لها كل إنسان ولا يبعد أن تباغته في كل آن ومكان لتلطف عنه لذعتها التي يتلوى من قوارض آلامها الذين تداهمهم على غرة واطمئنان . وكذلك آلام الشيوخ . حزن ساكن لا يخالطه ذلك الوجع الحاد الذي يمتزج بالآلام الشباب .

الموت

الموت أعم المصائب وقوعاً ولا يزال أشدّها إيلاماً وأقلّها قبولاً للعزاء . على أن ذلك لا يفيد أنه غير مأثور ولكنّه يدل على أن الإنسان لا يجزع لصاب غيره كما يجزع لصاب نفسه .

تواضع الملوك

الرعايا تختصب للملوك تواضعما ليس بتواضع في الواقع . فلو علم الملك الذي يتنزل إلى مخاطبة السوق أن في ذلك ما يغضّ من قدره بل لو علم أنه لا يرفع مكانته عندهم لما فعله .

الاثرة :

الرجل الايثارى في الحقيقة يتحرى مصلحته أكثر من الرجل الاناني . فان الأول يحسب حساب مصالحة في الحاضر والمستقبل والثانى يقصر نظره على المصالحة الحاضره .

على أن الاثرة المقوته ليست هي التي تفسرها بأن يحب الإنسان الخير لنفسه . ولكنها الاثرة التي أساسها جهل حقوق الغير أو تجاهلها وهى أثرة عتاة المستبدین والأطفال ومن على شاكلتهم من الجهل بعواطف الناس أو عدم الاضطرار للاعتراف بها . وهي أيضاً أثرة من يطلق له العنان لحب نفسه وارضاء مطامعه ، وشر هؤلاء ضرراً على الاجتماع في وقتنا الحاضر فئة الرأسماليين الذين ترکهم الحكومات يجمعون الأموال ويتمتعون ويتلذذون ويذبحون بما يسرقونه من أتعاب العمال وأرزاقهم . وهذا هو الخلق الذى لا يحسن أن يكون في شخص يعيش بين الملايين من أمثاله ويجب أن تطارده الهيئات الاجتماعية بكل وسيلة لأنه آفة الاجتماع .

ال حاجات والقدم :

حاجات السواد الأعظم منا لا تزال حيوانية صرفة . أكبر علامات المرض عندنا الحمية عن الطعام . فلان لا يأكل ولا يشرب أى أنه بلغ أشد الداء أو أشد الغم . يبكي الطفل فلا يخطر لأمه أن أمراً يبيكيه غير الجوع : يحرم أكثرنا أكل الفاكهة وشم الزهور وشهود الحفلات وغشيان الملاعب والمتزهفات لأنها كما يقولون لا تسمن ولا تغنى من جوع . يكىد فلا حنا طول يومه بل قل طول عمره ليجد

ما يمسك رممه ثم لا تسمعه يتذمر أو يشكو كما يفعل الفلاحون في الأقطار الأجنبية لا لأنه يزهد كسراط أو يكتشف كديوجنس ولكن لأنه يجهل ما يطلبه بعد حشو معدته ودفعه جلده ، وإذا سمعته يشكو فقل أن تسمعه يتظلم لأنه لا يحدث نفسه بأن هناك أحداً يظلمه حقاً من حقوقه . حاجات ما أحسها لا يمكن أن تقنع العجماءات بما هو أحسن منها . فإذا صرحت أن رق الأمة إنما يحسب بقدر تعدد مطالب الفرد ، فما أبعدنا عن الرق الحقيقي وما أبعد الرق الحقيقي عنا .

الرياء :

ما رأيت مراتيا إلا وجدته مغتاباً تماماً . والجراءة على الناس في غيابهم كالتلف لهم في حضرتهم . كلامها علامة الجبن والصغر .

الكلام والأوزان :

يظهران قوله الجمل وأوزان الكلمات أثبتت انتقاشاً في الذهن من حروفها فربما نسي الإنسان معنى الكلمة أو حروفها فربما نسي الإنسان معنى الكلمة أو حروفها ثم ذكرها بوزنها وقد يسبقه لسانه في الخلط بين الحروف مع حفظ الأوزان . فإذا كان يريد أن يقول مثلاً وطبقاً يخصنان نطق بها وخصوصاً يطفقان كما تسمعه أحياناً من بعض الحفاظ . ولعل سرعة استظهار الأشعار والكلام المففي سببه مثل هذا .

العالم في نظر أكمه :

حاولت أن أقف على صورة العالم في خياله غلام أكمه فقال لي

أن يراه كأنه هيولى مضطربة في ظلمه قائمة لا أول له ولا آخر .
قلت لا تأس يابنى . أن أنفذ الناس بصرًا أو بصيرة لا يرى منه أكثر
من ذلك .

الموسيقى

- التلازم متين بين الأصوات والانفعالات الباطنية وهو أمن بين الانفعالات والحركات البدنية . فإن الحيوانات والوحش والهمجيين والأطفال والنساء أحياناً ، تترجم عن شعوراتها بالصياح على كيفيات مختلفة مقررونا في الغالب ببعض الحركات البدنية . ثم أن لكل من حالاتنا النفسانية لهجة خاصة وكل لهجة لها هيئة تناسبها . فلهجة المسرور والظافر والشاكى والحزين والمتأنم والغضبان تباين تبايناً يشعر باختلاف مصادرها . وإنك لتسمع الخطيب الذى لا تفهم لغته فتعلم من تغير لهجته وارتفاع صوته أو انخفاضه إن كان راضياً أو ساخطاً حاثاً أو مخدرًا مبشرًا أو منذرًا .

فإذا وقع الموسيقار صوتاً تنبه الاحساس الذى يناسبه على الأثر في نفوسنا . كأنهما فيها متلازمان لا ينفكان . وفي الأصوات التي يشتد لها طرب السامع يتتبه مع ذلك الاحساس حركة بدنية مطابعة للنغم الذى يسمعه . فيهز رأسه أو يحرك عضواً من أعضائه . وهذا أول درجات الرقص ثم يرقص . وقد لا يملأ نفسه مع الرقص من الترنم بالصوت الذى يسمعه أو الغناء بما على وزنه من الكلام المفهوم .

فنحن في قبضة انفعالاتنا تتلاعب بنا كما تلعب الأم بوليدها بين ذراعيها . نرقص ونشب ونصبح بالرغم منا كما يفعل الهمج والعجمات . وترانا في ألطاف مظاهر أنسنا نحن إلى همجيات أولئك الجدد .

نهاية الرق

الرق العصرى كفيل بأن يصل بالانسان إلى درجة تكون فيها إرادته قانونه وترفع عنه كثيراً من سلطة الحكومات عليه .

الميراث :

ليس للانسان حق أن يحتجز من الثروة العامة إلا بقدر ما يقوم لها من العمل . فالرجل يسقط حقه في التصرف بثروته متى انقطعت أعماله لموته . وعلى الهيئة الاجتماعية الانفاق من ريعه على من يهمه أمرهم من بعده .

يترك الرجل لابنه ضياعة . والضياعة قبل عشرة أعوام لا تكلف صاحبها إلا سعيا طفيفا ولكنها لا تناول بعد عشرة أعوام إلا بتكبد المشاق والصعاب . فيتعمد ذلك الابن الكسول بجزء من الثروة العامة من غير أن يقدم لها عملا في نظيره وإلى جانبه رجل مجد نشيط يقطع عمره كذا وكذا دون الوصول إلى اقتناء ضياعة مثل ضياعته . وهو خلل متشعب في تقسيم ثروة الأمة لا يستقيم حال الجماعية البشرية إلا بتلافيه .

فراسة المرأة :

المرأة ألطف زكارة وأفطن إلى تشابه الملاع من الرجل . فقد رأيت بعض النساء يرین الطفل الصغير قبل أن تشخص ملامحه فيحکمن بأنه من آل فلان وأن فيه شبه العائلة الفلانية وقد لا يبدو لغير المتأمل أن بينهما أدنى شبه . والظاهر أن كثرة اشتغافهن بتجمیل الملاع قد أکسبهن هذه الخبرة فيها .

التاريخ القديم :

كتب التاريخ القديم أقرب إلى الإحصائيات أو سجلات المواليد والوفيات منها إلى التاريخ . فإذا قرأت فصلاً عن رجل عظيم ذكروا لک اسم ایه وأمه ويوم ميلاده ويوم وفاته والبلد الذى نشأ به والبقعة التي قبر فيها . فعرفت اسمًا ولقبًا ويومًا وبلدًا وقبرًا ولكنك لم تعرف رجلاً .

الطلاق :

إن أکثراً يظن أن المرأة من متممات زينة البيت فکما أن في البيت متاعًا وأثاثًا عن كل صنف . كذلك يحسن أن تكون فيه واحدة أو أكثر من صنف النساء وأن بعضهم ليغير زوجته مرارًا ولا يغير ملاءة سريره .

تعدد الزوجات :

لا أعلم لماذا يسوغ للرجل أن يستحوذ على أكثر من أربع نساء ولا يسوغ للمرأة أن تطمع في أكثر من ربع رجل إن لم يكن أقل ٩٩

أقدار المجد :

من حسن حظ العظماء أنهم وحدهم الذين يطّلعون على الدنيا
التي يتلطخ بها طلاب المجد الكاذب .

التغريب :

التغريب بالعقل عمل يسير ولكن نزع الغرور منها من أصعب
الأمور ولأنّ عنى الإنسان بالباطل أحب إليه من أن تيئسه بالحق» .

أحاديث الشبان :

من شبان العصر من إذا جلست إليهم لتنصت إلى محادثتهم حررت
في تحديد موضوعها . يبدأ أحدهم بالكلام ولا يتمه ويسأل السؤال
ولا ينتظر جوابه . يعني ثم يقتضب الغناء ثم يضحك . ينتقل من
كلام تافه إلى كلام أتفه بلا مناسبة أو صلة بين الكلامين . بحيث
يسأل الإنسان نفسه أما كان يمكن أن يستغنى هذا عن لسانه ؟ يشير
ببديه وبهز رأيه وقدميه . ويدور هنا وهناك بغير غرض ولا موجب .
كأنما عليه أن ينطق بقدر معين من الكلمات ويأتي بعدد معين من
الحركات فهو لا يقصد من كل إشاراته وعباراته إلا أن يصيّب العدد
المطلوب .

الحرب :

من أقوال فتزجر الدعلى ما أذكر - «إن الحرب تجر إلى الفقر
والفقر يحث على العمل والعمل يورث الغنى والغنى يسبب الشقاوة
والشقاوة يفضي إلى الحرب ...»

ولا أظن أن هذه السلسلة ستحفظ نسقها في هذا الزمان . بل

أرى على العكس من ذلك أن السلم سوف يكون في المستقبل مسيحاً بسور من الذهب والفضة فان انتشار المعاملات واشتباك المرافق الاقتصادية بين الأمم سيكون أول باعث على اتقاء مواقف القتال.

فقد ضعفت الخلافات التي تفضي إلى الحرب بمقدار ما عظمت خسائرها . وكلما تقدم الزمن زادت هذه فداحة وتلك ضعفًا .

فالحرب لا ترتكز على شيء من الطبائع البشرية . بل هي تنافرها كل المنافة . فالرجل لا يخوض غمارتها إلا فراراً من عار الناس أو عقاب الحكومة أو سخط الله أو دفعاً لخطر على حريته . فهو يقدم على موت مشكوك فيه فراراً من موت محقق أو ما هو منزلة الموت المحقق .

فالشجاعة العسكرية عادة اصطناعية . والناس جبناء بطبيعتهم أي أنهم سواء في الخوف من الموت حتى الجنود . على أن هؤلاء يتظاهرون أنهم لا يسرون فقط بين الموت والحياة . بل أنهم يعشقون الموت ويبغضون الحياة . فيقول^(١) أحدهم متى كما كلما اخنى جندي في ساحة الوغى من طريق رصاصة توشك أن تثقب صدره : أهى صديق تتحنى له ؟؟ . كأنه ليس في نفوسهم من كراهة الموت ما يتجشمون من أجل اتقائه احناه الرأس !

(١) اعتمدت في وصف أحوال الجندي وهو يجس نفوسهم على رسالة صغيرة للكونت بولستوف عنوانها «سفاساستيول» وعلى مقالة كتبها مقدمة لكتاب ضابط روسي عن الحرب التي وقعت في تلك المدينة أحسن فيما وصف حركات الجنود وأطوارهم ومثل أحوال المخوب ومنكراتها أحسن تمثيل .

قال تولستوى وهو قائد قديم : (إن شجاعة الجنود من جنس شجاعة البغال التي تقف إلى جانبهم مشدودة إلى مدافعتها . تحاول الإفلات وما تستطيع انفلاتاً) فمهما أوى المرء من الشجاعة فلا تصدق انه يقتسم الحرب وله مندوحة عن اقتحامها ، كذلك مطمئنة لا تصدق أن إنسانا يواجه الحرب بطبيعة ساكنة لأن الطبيعة البشرية تأى التعرض للخطر وتنفر من دواعي الهاك . فالمجحون يهيجون طبائعهم قبل الحرب إلى حد الجنون بدق الطبول وقرع الدفوف والولولة والصياح والتمددون يتشارعون عنها ويتحاشون ذكر القتلى والإصابات والخسائر وكل ما يخلق فيهم الشعور بحقيقة موقفهم . فيصرفون خواطرهم عن هذه الهواجس بسفساف القول وتوافه الأحاديث فلا تسمع بينهم لحوادث الحرب ذكرًا أو خبراً كائناً لم ين فيها ما يستحق المبالغة بينما تكون الحوادث سر أخلاق الناس على بعد مئات الفراسخ والأميال . هذا على أن تعرض مئات الآلوف من الناس في صعيد واحد خطير واحد من شأنه أن يهون الأمر على كل منهم ويشدد عزيمته على اقتحامه .

وأنه ليس أسفخ من أن تسمع ضابطا يشكو ويتأفف من حصن تهمر عليه المقدوفات من كل جانب وتنفجر حوله وعلى جدرانه القنابل بين كل دقيقة ودقيقة . وتسأله فيقول لك . إن الطريق إلى الحصن موحلة فهو يعاني صعوبة في السير عليها .

قال بعض قواد الألمان حديثاً أن الحرب تنمو في النفس كثيراً من الصفات المدوحة وأهمها تضحي النفس في سبيل الواجب . على أن هذه هي الفضيلة الوحيدة التي لا تشمها الحرب وتنمى ما ينافقها تماماً .

فكل جندي وكل ضابط نابليون صغير - كما يقول تولستوى - يزهق بقدر ما يمكنه من النقوس ويبيت بقدر ما يمكنه من الأطفال ويذمر بقدر ما يمكنه من الدور ليلصق بذراعه شريطًا أو يحمل صدره بنيشان يخطف به أبصار البسطاء .

ومع هذا فمهما كان نصيب رأى ذلك القائد من الصواب فالإنسانية يجب أن لا تعول في اكتساب هذه الفضائل على مثل هذا البرنامج الصعب . فإنه برنامج يكلفها من النقوس والأموال ما هي في غنى عن احتماله .

فالآن لا تلجأ إلى الحرب إلا كآخر وسيلة لحل الخلاف . وأين هو الخلاف الذي يربو الضرر فيه على ضرر الحرب المترتبة عليه ؟؟ وهل يبلغ تنازع البقاء بين أمتين في عصرنا هذا أن تسحق إحداهما الأخرى لتتخلص من مزاحمتها ويخلو الجو لتجارها ؟؟

إن أقوى بوادر الخلاف قائمة الآن بين إنكلترا وألمانيا وهذا الخلاف لا حقيقة له ، فهو مبني على توهם كل من الأمتين أنها قد تتعرض لهاجمة الأخرى في المستقبل . فاذا سألت : هل مصلحة ألمانيا تقضى عليها بغزو إنكلترا أو إحدى مستعمراتها وهل تقضى إنكلترا بغزو ألمانيا أو إحدى مستعمراتها وهل الفوز في المنافسة التجارية يتوقف في المستقبل على مثل هذه الوسائل العنيفة ؟؟ اجابت كل شواهد الأحوال سلبا .

والآن لا تترك اليوم لكل أمة تمام الحرية في الموازنة بين مقتضيات

الحرب وموانعها بالنسبة لها وحدها فإن أكثر الأمم تشارك في تحمل خسائرها وأن لم تشارك في حشد الجنود وجمع الذخائر . فقد بلغ من استحکام الروابط الاقتصادية بينها أن أقل إشاعة بوقوع الحرب في أقصى المعمورة توقع الارتباك في السوق المالية فتنخفض الأسعار وتهبط الأسهم وتتززع الشرکات عدة أيام .

والذى يشاهد من انتشار نفوذ أحزاب الاشتراکيين والعمال وهم الفريق الذى لا مصلحة له في الحرب ، ذلك كله مما يقوى الأمل في أن يوم إبطال الحرب أقرب مما ينتظر بكثير .

الاستخدام

موظفنا الصغير يبع حریته ووقته وعمله بخمسة جنيهات في الشهر . يناظر تقدير كفاءته بإرادة غيره وربما أريد منه فوق الكفاءة في العمل كفاءة أخرى في الملق والدهان . ينقل من بلد إلى بلد بغير اختياره ويجبر في كل مرة على ربط صلاته بقوم وقطعها من آخرين ثم تخظر عليه الحكومة اقتناء الأرض والعقار في الجهة التي يشتغل بها كأنها تركت له ما يقتني به - وهو معرض في أية ساعة للنقل إلى أية جهة فأين يباح له الاقتناء ؟؟ ونحرم عليه الاشتغال بأمور البلد الذي هو فيه كأنما هي اقتلعته من العالم الخارجي من جذوره . وهو مع ذلك يحسب أنه الرابع في هذه الصفقة وأنه لا يمكن أن يجد اهنا من هذه العيشة . يصل إليها بعد أن يخطى عشرات المزاحمين عليها .

(مباراة في الخيال ، بين حسن الانسان وحسن البستان) :

الموضوع

اخجلت يا ورد خحدود الحسان فاحمر منها ناضر كالدهان
 ورعت يا فل عيون المهى فاطرقت تطلب منك الأمان
 وزمت الغيد شفاهما لها لما انجل شفرك يا اقحوان
 ومالت القامات غضبانة لما اشنى في روضة غضن بان
 وأين شدو الطير في مزهر من مزهر تشدو عليه القيان

الأسباب

فالورد ما احررت له وجنة من ريبة حاشا لورد الجنان
 والاقحوان الغض لم يترسم خبئا ولم يدنس بمين اللسان
 وقامة الاغصان لم يشنها كبير ولم يعطف بهن اقتنان
 وذاك صداح اهازيجة لا تشتري بالتبور أو بالجمان
 لا يحرم الماهن من لحنه ما يسمع العاهم ذو الصوبلان

الحكم

ما أحسن الحسن واحسن به من زينة للناس لولا الحسان

العشق

لا أرى العشق إلا نزوة من نزوات الشهوة البهيمية يخصصها في
 الإنسان بامرأة - دون سواها - تفاوت الملامع في اناثه . وتعتم في
 البهائم لأن تماثل اناثها في الخلقة لا يدع ما يحتم الانجذاب إلى اثنى
 بعینها من بقية الاناث .

والحب الشريف والحب الخسيس معدنهما واحد وغرضهما واحد

وطبيعتهما واحدة . والذين يتوهون، أنهم إنما يعشقون لمحض التفرج على الجمال الصورى يخدعون أنفسهم فأن من التمايل المنحوتة ما هو أجمل صورة من أجمل امرأة في العالم ومع هذا فنحن لا نشغف به ولا نتدله في حبه . وغاية الفرق بين الحبين الشريف والخسيس أن الأول حب العقلاء الذين يسوءهم تضحيه احباهم لشهواتهم وأن الثاني حب الحمقى الذين لا يفكرون في غير قضاء الشهوة .

وهو - أى العشق - أحد الشهوات لأنه الشهوة الوحيدة التي إلا تتم الا بترافق شخصين يحتاج كل منهما إلى الشمائل والأوصاف التي يصبو إليها الآخر ليقترب كل منهما إلى صاحبه من بين ألف الرجال والنساء . فالحقيقة في العشق - اليأس من الذات التي لم يستحوذ على اعجابنا سواها من كل هذا الملاً والتي لا يهمنا من كل هذا الملاً أن يعجب بنا سواها - هذه الهيبة أو هذا اليأس ليس معناه فقط عدم التمكن من قضاء شهوة . بل معناه أيضاً أن العاشق ناقص فيما يسترعى إليه قلب المعشوق الوحيد الذي لا يبالي أن كان كاملاً من هذه الوجهة في نظر غيره . أى ناقص فيما هو به رجل يستحق إعجاب المرأة التي وقع عليها اختياره من النساء أو فيما هي به امرأة تستحق إعجاب الرجل الذي وقع عليه اختيارها من الرجال . بغض النظر في جميع ذلك عن فوارق الدرجة والمقام فان هذه مميزات تميز رجلاً على رجل أو امرأة على امرأة ولكنها لا تميز ذكرًا على ذكر أو أنثى على أنثى .

قطرنا ندى على فسيلة قبر

أعما عييت في الدنيا جهادا
قضيت وما قضيت بها مرادا
وما ابلاغك إلا المم داء وشر الداء ما نال الفؤادا
ما كنت اقرأ مناعي الجرائد لأنها بكاء مأجور كبكاء النائحات .
لا تصادف فيها عين القارئ إلا ما تصادفه على ألوان الأضريحة عند
النحات من إعلام مجردة لا تتبين وراءها وجها ولا تستشف لها
معنى .

ما كنت اقرأها من قبل ولكنني في ذلك اليوم قرأتها . فقد كانت
تبدو عليها كباوة الحزن وتعلوها غبرة الكمد . فقرأتها ثم قرأتها فإذا
هي تنعى اماما العبد . فأعادت قراءتها فإذا هو بعينه أمام . صاحبى
أمام الذى ما تعودت أن اقرأ اسمه في الصحف إلا مقرونا بملحة من
ملحه الرقيقة أو طرفة من طرفه المستظرفة .

أبىت أن أصدق الخبر . والنفس البشرية إذا أبىت الموت لأحد .
تشأ أن أصدق نعيه . فما أكذب تعلاتك إيتها النفس . كان ذلك
لو كان كل أمر إلما يجرى على هواك وووفق مرادك . ولكن ما هذه
التعلات منك والأمور كأنما تجبيء عمدا على خلاف ما ترومين وبضد
ما تشتهين .

فسقطت من عينى دمعتان ما أردت لهما إرسالا ولم أحاول لهما
كتها . دمعتان ليستا بالحارتين فقد أطفأت الأسمام جذوة قلبي وتركته
جلدة ميتة ما تحس ولا تألم دمعتان لا تتقد فيما حرارة اللهف
ولكنهما مشبعتان بكل ما في دموع الأصدقاء على الأصدقاء من مرارة
الشجو وغضاضة الأسى .

فذكرت لإمام الأمس المدرج اليوم في وحشته ، ساعات طيبات
ما كنا نختسبها للزمن ولكنها الآن حسنة من أجمل حسناته لو أنها
تعاد . وضحكات مغتصبة في غفلة الأشجان والأكدار ، وهي الآن
حسنة من أجمل حسناته لو أنها تعاد . وضحكات مغتصبة في غفلة
الأشجان والأكدار ، وهي الآن عبرات تشرق بها عيون أصدقائه
والعارفين بظرفه وأدبه .

وذكرت له جلساتنا في قهوة استانبول التي كان يختلي إليها كثيراً .
نأوى إليها في قيلولة الظهيرة نستنشق هواء الحديقة ونسمع منه أخف
من نسماته فكاهة وشفى منه للنفوس نكات يفرج عن الصدور
كربها وهو أشد الناس كرباً ويزيج عن القلوب غمها وهو افعهم
بالغم قلباً .

لكن الآن ؟

الآن قد مات !

مات قبل أن يداوى الدهر القاسي طعنه من طعناته التي أنحن بها
جسده التحيل . مات قبل أن تبتسم الدنيا لفؤاده الكسير مرة بعد
ذلك العبوس الطويل . مات في عتفوان الصبا ومقتل الشباب .
فاللوداع إليها الصفي الوف وداعاً أبداً ليس يعقبه سلام . والفارق
إليها الصاحب الودود فرافقا سرديداً لا مطعم بعده في لقاء .

الألعاب غير الرياضية

إذا انتشرت الألعاب غير الرياضية كالورق والدومينو والترد

والشطرنج والسيجـة أمـاـها كان ذـلـك دـلـيـلاـ عـلـى كـثـرـةـ الـبـطـالـةـ أوـ نـضـوبـ مـادـةـ الـحـدـيـثـ فـيـ الـوـسـطـ الـذـيـ تـتـشـرـ فـيـهـ . وـكـلـاـهـماـ دـلـيـلـ التـأـخـرـ .

النقد والسيخاء

يهون البذل في الجهات التي تتعامل بالمقايضة أكثر من الجهات التي تتعامل بالنقد . فان الدرهم قد تقضى به عدة أصناف مما يشرى بقيمتها . على حين أن مقداراً بقيمتها من الخطة أو الآثار أو الخبر لا يؤدى بعينه في غير ما يستعمل له عادة . والمتكفلون وأبناء السبيل يطوفون على الفلاحين في أيام الحصاد فينفحونهم بحفان الغلال والحبوب عن طيب نفس ، وقد يسألونهم مليماً فلا يسمحون به وهو أقل قيمة مما يعطون .

بقايا الميثولوجى :

فـ المـيثـولـوجـيـ الـقـديـةـ - وـ الـحـدـيـثـ أـيـضـاـ - كـثـيرـ مـنـ الـأـبـطـالـ الـذـيـنـ ولـدواـ مـنـ آـبـاءـ آـلـهـةـ أـوـ اـنـصـافـ آـلـهـةـ وـأـمـهـاتـ مـنـ عـذـارـىـ الـبـشـرـ .
وـفـيـ أـيـامـنـاـ هـذـهـ مـنـ يـعـتـقـدـ اـمـكـانـ التـزاـوجـ بـيـنـ رـجـالـ الـأـنـسـ وـنـسـاءـ
الـجـنـ وـإـنـ لـبعـضـهـمـ أـوـلـادـاـ مـنـ بـنـاتـ الـبـحـرـ يـدـعـونـ آـبـاـعـهـمـ بـالـمـاعـشـرـينـ .

الفضيلة المأجورة :

إذاً كنا نعد المرأى الذي يقرض بسرعه خمسين في المائة رجلاً طماعاً
مغتالاً فليس من الزهد ولا من حب الخير أن يقرض الرجل ربه بسرعه
ألف في المائة مؤجلة إلى يوم الحساب .

وإذا كان الرجل الذى إنما يمتنع عن السكر والقامرة خوفا من محاضر البوليس لا نراه ، في نظرنا رجلا تقىا نزيفا . فليس من الاستقامة والفضيلة أن يتركهما الرجل خوفا من نار الجحيم .

وإذا كنا لا نستعظام من الطفل الصغير أن يحفظ درسه لأنك وعدته بتصويرة أو يتتجنب اللعب لأنك أخفته من الغول . فالرجل الكبير الذى يفعل الخير طمعا في الثواب ويبعد عن الشر خوفا من العقاب لا يأتى ما يستحق عليه الاطراء والأكبار .

إن كل إنسان يعمل عملا فإما يترقب من ورائه نفعا لشخصه ولكن يجب أن يكون ذلك النفع نتيجة مختومة تستلزمها طبيعة عمله ويرتبط بها العمل ارتباطا النتيجة بالمقدمة وليس مكافأة أو أجرا ينتظره من سواه .

المبادئ :

الرجل الذى لا يتقييد بمبادئ عامة يطبق عليها آراء الخاصة ، إنما رجل سطحى يجهل سر العلاقة التى تماثل بين الحوادث . لذلك يجهل كيف يحكم عليها حكما عاما يوحدها في نظره . أو رجل محنك يدرك سر علاقتها فيحكم على كل عمل على حدته لأنه علم بالاختبار أنه لا يحدث عمل يماثل الآخر من جميع الوجوه . ويغلب أن يكون صاحب المبدأ شخصا نظريا ناقص الاختبار .

الاعتماد على الذات :

إن الذى يكل إلى الناس تقدير قيمته يجعلونه سلعة يتراوح سعرها بتراو حهم بين الحاجة إليها أو الاستغناء عنها .

والطريقة المثلث أن يقوم كل انسان لنفسه قيمتها . فان المرء كما يقول بعضهم يساوى القيمة التي يضعها لنفسه . ذلك خير من أن يطرحها في المزاد على السنة الناس .

شرف المهنة :

صاحب المهنة يباهي بمهنته كأنه لم ير غب فيها إلا بعد أن تبين مزاياها . وهو يضجر منها كأنه سيق إليها قسرا - وذلك لأنه حبا بنفسه يود لها بما في وسعه أن يكون أقل الناس تعبا وأكثرهم اعتبارا .

بماذا يشفى الشعراء

أصحاب القرائح الشعرية لا يتمتعون بالحياة الحقيقية كحقيقة الناس فان حياتهم كلها ذاهبة بين أمل في المستقبل أو ذكرى للماضى وقل أن تستقر بهم نفوسهم في الحاضر الراهن لأنه دائما على غير ما يشتهون . والشاعر مكتوب عليه الشقاء مادام مطبوعا على موهب الشعراء . فهو حاد الخيال تصور له قريحته العالم حافلا باللذة والنعيم متربعا بالصفو ودواعي الهناء مما لا يصدقه الواقع . وترى الناس على صورة تبرهن العاشرة على خلافها . وهو لطيف الاحساس دقيق الشعور يوجعه مالا يكاد يحس به غيره وتفعل في نفسه الوخزة الاهينة مالا تفعله الطعنة القاسية في نفس غيره وهو فاتر الهمة ، ميال بطبيعته إلى الدعة والاستسلام محروم من العزيمة الصارمة التي تمكنه من تحقيق أحلامه العديدة وإدراك آماله البعيدة وهذا من أشد ضروب الشقاء

كما قال شاعر منهم :

وأتعب خلق الله من بات آملا وأقصر عما تشتهي النفس نائله

وهو سليم الطوية طيب القلب ينطلي عليه خداع الناس وختلهم وتغره تموياتهم فيرکن إليهم ثم لا يلبث أن تكشف منهم الأيام ما يخالف ظنه ويخيب ثقته . وهو عجول كالصبي تتحكم فيها إحساساته الواقية كأنه الصائم بانتظار الأفطار ، سرعان ما تبدو له النعمة بعد ضنك فينغمس فيها غير حاسب للعقوبة حساباً أو مبق لغده بقية . فإذا ولت أيام الرخاء وجاءت بعدها أيام الشدة كان ذلك أدعى إلى طول حسرته وتنعيم عيشه . وهو سريع التقلب كثير الضجر لا يألف البقاء على حال واحد فلا يصبر على الشظف وهو يعرف الترف ولا يرتاح للفقر وهو يفهم ما هو الغنى - فبغير هذه الأطوار - التي هي من مستلزمات سرعة الخاطر وهو من مستلزمات سلية الشعر - لا يكون شاعراً مطبيوعاً . وبها لا يكون سعيداً . إلا أن الطبيعة التي سلطت عليه كل هذا الشقاء لم تحرمه مما يعينه عليه . فكما أن خياله ينبع باللذة الوهمية كذلك يخفف عنه الألم الواقع وكما أنه شديد الإحساس بالحزن كذلك وهو شديد الإحساس بالسرور . ولعن كان محرومًا من جمع الأموال وتأثيل العقار واقتناء القصور والضياع فان له نوعاً من الارتفاع في كل شيء يراه . قال اديسون في رسالته عن الخيال :

«ربما أحس مثل هذا الرجل في مشاهدة المروج والبساتين بارتياح أكبر مما يجده بعض الناس لامتلاكها فكأن ذوقه الدقيق يخوله نوعاً من الامتلاك في كل ما يقع تحت نظره ويجعل أبسط ماف الطبيعة وأبعد مناظرها عن الصقل والتهذيب تشتراك في ترويج نفسه وتطيب خاطره . وكأنه ينظر إلى هذا العالم على نور غير نور الشمس فيكشف

منه غير ما يكشف ذلك النور من ذخائر تحجب نفسها عن أكثر
من تراهم الناظرين»

داء الحياة

لقد ثقلت على نفسي حياني وأشدق عائدى وشكت أسانى
سُئمت بما أريد اليوم إلا دواء الموت من داء الحياة
إذا كانت حياة المرء سجنا فشق اللحد باب للنجاة

القول والقائل :

«أنظر إلى ما قيل لا إلى من قال» قاعدة لا يصح إطلاقها في كل حال فالكلمة تختلف معانيها باختلاف قائلها . فان كلمة مثل قول المعرى مثلا :

تعب كلها الحياة فما أعجب إلا من راغب في ازدياد
يؤخذ منها مالا يؤخذ مما تسمعه في كل حين بين عامة الناس من التذمر من الحياة وتنى الخلاص منها . فأننا نثق بأن المعرى مارس الأمور الجوهرية في الحياة ودرس الشئون التي تكون منها عذبة أو مرأة ، نكدا أو رغدا . ولم يسرر منها أولئك العامة إلا ما يقع لهم من الأمور التي لا تكفى للحكم على ماهية الحياة .

الآداب القدية :

الآداب القدية مبنية على جهل فاضح بالغراائز الرئيسية في الإنسان ، فهى تقول له : من نظر إلى إمرأة أجنبية واشتهاها (فقط) فكأنما زنى . من أحب الحياة ورغب في حطام الدنيا فمحال أن يكوم

صالحا . من عمل حسنة يريد بها الجاه بين الناس فقد انتكس عمله . الحزن لفقد البنين والأصدقاء أثم وكنود الخ ويزيدها جهلا على جهل أنها لا تعد هذه الأميال من دواعي فطرته ولكنها تراها وساوس من روح خارجية توسوس له بالشر وتبعده عن الخير .

الاصلاح الاجتماعي :

قد نعرف ما هو الفاسد من نظمات المجتمع ولكننا لا نعرف ما سيكون صالحا منها . نقدر أن نهدم بناءً متصدعا ولكن لا نقدر أن نقيم في موضعه بناءً جديداً : جهد ما يطلب من المصلح الاجتماعي أن ينبع إلى العيوب والأغلاط التي في مجتمعنا فمتلاهاها أما أولئك المصلحون الذين يخرجون كل يوم للناس بنظمات وشرائع ودساتير ومذاهب يدعونهم إليها بزعم أنها كافية بصلاح المجتمع فلا يمكن أن يقال أنهم يتجاوزون حيز التخمين إلى التحقيق . ذلك عمل انفرد به الزمن ولم يشرك فيه أحداً .

• الضحك :

للضحك عدة أسباب أكثرها يدور حول محور واحد هو الإغبطة بأنفسنا . إغبطةانا أما بما نحسه من كمالها أو بسلامتنا من النقص الذي نكشفه في سوانا .

ولما كان الإنسان لا يضحك إلا سروراً برجحانه فهو لا يضحك في الأحوال التي رجحانة فيها معروف غير محمود . فالرجل المعروف المكانة ليس يسخر من تصرف الصعلوك الوضيع وإن كان مضحكاً في ذاته . إلا إذا كان يسخر من أهل طبقة ليها بطبقته . أو من أهل بلاد ليها ببلاده .

وقد يضحك الإنسان من نفسه إذا كان الاستهزاء لا يناله وحده . فلما كان ملوك أوروبا وأمبراطرها وإمبراًها وسوسها وقوادها مجتمعين في سنة ١٨٥١ فيينا . وهم واثقون أنهم أحكموا الشبكة على بونابرت . وقد جلسوا يصلحون ما أفسده ويعيدون ما درسه من معلم أوربا أعلن في المجلس في ١١ مارس من تلك السنة أن الرجل قد أفلت من جزيرة ألب وأنه قد عاد ثانية امبراطورا على فرنسا . فوجموا هنيبة ثم ارتفعت لهم ضاحكة طويلة عالية كأن كل منهم يقول - إن هذا الكروسيكى لم يبعث بي وحدى بل عبّث بنا جميعا .

البكاء :

يُبكي الإنسان لغير ما يضحك له . يُبكي حين يظهر به النقص والعجز ظهوراً لاسبيل للمنجاة منه . يُبكي في الموضع التي يشعر لدتها بالقهر التام ويتحقق له تجرده عن الحول والقوة حيالها . في تلك الموضع يقول المسلم متمثلا «لا حول ولا قوة إلا بالله» كأنه لا يريد أن يكون ضعيفاً إلا أمام الله الذي يتساوى الناس عزيزهم وذليلهم في الضعف أمام حوله وطوله . والأطفال المستضعفون أكثر الناس بكاء لأنهم أقلهم اقتدارا . على أن عدم البكاء لا يفيد في أكثر الأحيان القدرة على دفع المصائب . فان من أصحاب المظاهر والأبهة من يترفع عن البكاء ويتكلف الجلد والسكنون حتى في الفجائع الفادحة كأنهم يأبون الإقرار بالانهيار على كل حال .

الغنى والسعادة :

لا تحسدن غنيا في تنعمه قد يكثر المال مقرونا به الكدر
تصفو العيون إذا قلت مواردها والماء عند ازدياد النيل يعتكر

الحرية الشخصية وتقدم الحركة الاقتصادية :

في البلاد التي تشتبك فيها المصالح وتوسّع الأعمال تجد الناس ينساق بعضهم إلى معاملة بعض قسراً، وكثيراً ما لا يكون الرجل اختيار في معاملته أكثر من اختياره في أقربائه وذويه. فلا ينظر منهم ولا يقدر أن ينظر إلى غير الغرض الذي يقصدهم من قبله. فمن ثم كان كل عامل لا يعني تجوييد عمله، ول يكن بعد ذلك سكيراً أو مقامراً، نصراً أو يهودياً، ملحداً أو مؤمناً، محافظاً أو حرّاً، فلذلك مالا يسأل عنه أحد. فاحترام الحرية الشخصية - الذي معناه سقوط رقابة البيئة عن الفرد - يكون في مثل هذه الأقطار على أتمه، بل يكون من الآداب الاضطرارية التي لا يحضر عليها بالرسائل أو المقالات.

القوة والأخلاق :

إذا كانت الحياة صراعاً بين القوة والضعف يقى فيه الظافر ويتوارى المهزوم فالقوة باختلاف معانها محبوبة إلى كل إنسان والضعف باختلاف معانه مكرروه عند كل إنسان. وكذلك كل ما أفاد القوة فإنه محترم محظوظ وكل ما أفاد الضعف فإنه محتقر مرذول. ومن الأعمال ما يكون مستحسناً ومستقبلاً باختلاف عمل القوة فيه وهذا السطوة كان مدعاه الاعجاب فاصبح مدعاه الاحتقار وما تغير فيه إلا أداته فقد كان يستعان له في العهد الماضي بالشجاعة والآقدم فاصبح اليوم يستعان له بالجبن والندالة. فلو حللنا أسمح الخلال وأنبل السجایا لما الفيناها إلا أشارات تلمع إلى القوة من قريب

أو بعيد . يتسم الإنسان مضطراً ليحمي بها نفسه ويمكن لها في الحياة .

فالصبر قوة . لأنه تغلب على الأمر الذي يفرق منه غير الصابر وعدة يتدرع بها الصابر في الملمات .

والرحمة - وهي هنا ضد القسوة - قوة لأنها لا تكون إلا من الأقواء على الضعفاء ومن الوادعين على المبتلين .

والكرم قوة . لأنه علامة استغناء الرجل عن الناس بقدر احتياجهم إليه - كما أن بذل علامة القدرة اكتسابه في كل آن .

والقناعة قوة . لأنها تدل أيضاً على استغناء الإنسان بنفسه عن الناس .

والتواضع قوة . كأن التواضع يرى أن قدره أظهر من أن يتكلف اظهاره بنفسه .

والعفة قوة . لأن العفيف يزجر نفسه فيصونها عن زجر الغير لها ويراعي حقوق الناس طوعاً فيوقرها عن اكرابهم له على مراعاتها .

والحلم قوة . لأن الحلم بالحلم لا يستفده تطاول الناس كأنه أقل من أن يؤثر على مكانته .

والحياة قوة . لأنه ينزل صاحبه منزلة الوقار ويعصمه عن المهانة التي يلقاها أهل الوقاحة والابتذال .

التبصر قوة . لأن المتبصر يسلم بالأمر الذي لابد منه كأنه يفعله مختاراً قبل أن يرغم عليه .

والصفح قوة . لأنه عنوان القدرة الدائمة التي لا تمسها إساءات الناس وعدوانهم ، والتي إذا أبقيت خصمها اليوم فلنها قادرة على الاقتصاص منه في أى وقت تشاء .

وسلامة الضمير قوة . لأن عدم الاحتراس من الناس يشير إلى عدم الخوف منهم كأنهم لا يستطيعون أن يصلوا بسوء إلى صاحبه والعدل قوة . لأنه مساواة بين من يخشى بأسه ويطمع في مساعدته ، وبين ما يرجى له نفع أو يخشى منه ضرر .

والصدق قوة . لأن الصادق لا يضطر كالكاذب إلى اخفاء الحقيقة رهبة من اناس أو رغبة فيهم . ويقرب من الصدق في هذا المعنى الوفاء .

والزهد قوة : ولأنه غنى سلبي عما ينكب الناس على طلبه . والورع قوة لأن اعتقاد بقوة الخالق ترفا عن قوة المخلوقات .

واحترام الضعف قوة لأن احترام الضعفاء كاحترام الأقوياء يدل على خوف القوة ليس هو الحامل على الاحترام وجميع هذه الفضائل تشتراك في فضيلة أخرى وهي أنها تستجاب ثقة الناس إلى أربابها وتوقيهم الصغار الذي يتلبس به الذين يشتهرون باضيادها .

على إنك إذا حللت الرذيلة من وجهة أخرى لما وجدت إلا أنها اختصار الطريق إلى الغرض تهافتـا من النفس وعجزـا عن الصبر على تنكـبـ المـحـظـورـاتـ . ووـجـدـتـ الفـضـيـلـةـ عـبـارـةـ عـنـ الـوصـولـ إـلـىـ ذـلـكـ

الغرض عن طريق كثيرة العوائق والتعاريج يدل الترامها على الجلد
الاضطلاع . فيظهر مما تقدم أن الإنسان لا يستطيع أن يفخر بأمر
ليس للقوة نصيب منه . ولا يرغب في الانصاف بوصف إلا إذا كان
فيه إظهار لقوته أو مداراة لضعفه وأنه لا يوجد إنسان مهما بلغ من
الورع والتجرد ينفر من العزة ويرتاح للضعف . وأئمـا يختلفون في فهمـ
معناها كل بما يصلح له .

إلى المجلس الحسبي

أيهم أحق بالحجر ؟ ذلك المسرف الذي يدفع دنانيره أولاً فـأولاً
إلى من هو أعرف باستعمالها . أو هذا الشحـيج الذي يلتقط من الثروة
العامة دراهم يـعدهـم ثم يـحرـمـهاـ منـ الـانتـفاعـ بـهـاـ طـولـ حـيـاتهـ .

الغاية واللاغـيـةـ

من الناس من يرى أن الشمرة نبت حلوة ليأكلها الإنسان ومنهم
من يرى أن الإنسان أكل الشمرة لأنها حلوة . منهم من يقول أن
الإنسان خلق أولاً ثم صنع العالم من أجله . ومنهم من يقول أن العالم
صنع أولاً ثم خلق الإنسان منه . الأولون يعتقدون أن النجوم مصابيح
الإنسان والشمس روزنامته والهواء مروحته والبحر صهريجه والأرض
سماطه ومناجم باطنها خزانـتهـ وهـؤـلـاءـ يـعـتـقـدـونـ أنهـ منـ أـرـضـ العـالـمـ وـمـائـهـ
وـهـوـائـهـ وـعـنـاصـرـهـ تـرـكـيـبـ جـسـمـ إـلـاـنـسـانـ - وـعـلـىـ هـذـاـ الـخـلـافـ الـظـاهـرـ
يـدـورـ الـحـجـاجـ وـالـلـجـاجـ بـيـنـ أـصـحـابـ الـقـصـدـ وـأـصـحـابـ الـاضـطـرـارـ منـ
قـدـيمـ الزـمـانـ .

الطب والشعودة

المرض ، ألا قوتل المرض من عدو لدود العداء للإنسان .
عرفنا السلاح للسباع وعرفنا كل فتاك مثله لكل عادية مثلها إلا
المرض ..

نعم نقول للطب والأطباء . ولكن هؤلاء لا يسعفون إلا في الانحرافات التي نبالغ بتسميتها أمراضًا . أما في العلل المتمكنة التي إنما يدعى الطبيب لثلثها فهو لاء الذين يقولون عنهم - ولست أعمم - يقفون حيارى لا يمدون يدًا إلا إلى قبض الريال بعد الريال إلى أن يكل المريض من العطاء أو يملون من الأخذ وقد يموت أقصرهما عمرًا قبل أن يسام الآخر .

كنت أظن كل داء من المرض له دواء من الطب . وأن الطبيب إذا فاته علاج الداء فلا أقل من أن يضبط تشخيص أعراضه .

أحوجتني الضرورة إلى الأطباء و كنت أحسبني أغنى الناس عنهم فطرقت أبواب عدة عيادات . و كنت إذا دخلت العيادة اطمأنت جوانحى وسرى عنى ما بنفسي فأشعر بين جدرانها كأنى قد لذت بحرم الطب المقدس من أعدائى وما أعدائى إلا الآلام التى تطاردنى في الليل والنهار .

ثم أخرج منها مزودًا بنصائح في الطعام ونظام المعيشة لا أحيد عن حرف منها . وفي يدي زجاجة أحسب أن فيها السم القاضى على تلك الآلام . ثم لا تلبث أن تمر بضعة أيام فأراني كأنى لم أستشر

طبيباً ولم أتناول دواء . فأدعوا إلى طبيب آخر يفحصني ففحص زميله مع تنويعات وزوائد عرضية ولكنها كانت بعض عندى الرجاء في طبيب بعد طبيب . ثم أنصرف منه بدواء في لونه مغایر لدواء الامس ، وأأخذ في طعام غير ذلك الطعام ، ونظام في المعيشة غير ذلك النظام . ولكن على غير جدوى .

كنت أسع من الواحد منهم بعد الآخر بهيجة تلقي من كان يبيع الصحة بل الحياة بالمقدار :
أتريد أن تعرف الحقيقة ؟

إن بك ضعفاً في المعدة والامعاء يزول بقليل من العلاج
يقول ثان : أن معدتك كأحسن ما يكون ولكن الذي تشكو
منه في الحقيقة هو فقر الدم .

ويقول ثالث : أن جسمك ليس يفتقر إلى نقطة من الدم وأنت
لا يحق لك أن تشكو إلا من السوداء .

ويقول رابع : لو لا اختلال الكبد وهياج الصفراء لما كنت تتألم
من شيء الآن .

ويقول خامس : أن كل ما بك أن كليتيك لا تؤديان وظيفتهما
تقام الأداء وليس ماعدا ذلك إلا أثر يزول بزوال ذلك المؤثر البسيط .

يقول سادس : لا تصدق شيئاً مما يقال لك . فكل أعضائك سليمة
صحيحة وليس هذا الذي تشعر به إلا من مخلفات ضعف في الجهاز
التنفسى يرجى أن يزول .

وكان هذا الطبيب يقول لي : عليك بالدهن والنشويات وذاك يقول : إياك والدهن والنشويات . أسمع من هذا أن ادمان استعمال الأدوية مؤذ بالجوف وأن الأفضل الامتناع عن تعاطيها . وأسمع من ذلك أن ترك الداء بلا دواء قد يختلف عنه خطر جسيم . هذا يقول : استلق على ظهرك طول يومك وابتعد عن كل ما ينبه أعضاءك . ويقول لي الآخر : يجب أن تعين لك وقتاً تشغله يومياً بالفلاحة أو تمشي على قدميك بعد كل ساعتين نصف ساعة .

طبيب ينهى عن الاستنكار من السوائل وطبيب يأمر بأن لا اتناول إلا اللبن وأن لا اتناوله إلا ممزوجاً بضعفه من ماء فيشي . إلى مثل ذلك من الوصايا المتناقضة ولو كانت هذه الوصايا موجهة إلى عشرين شخصاً لما كان في الأمر ما يدعو إلى الحيرة ولكنها موجهة لشخص واحد وهذا الشخص ليس له مع الأسف قدرة الجن على التطور بعدة أشكال في وقت واحد .

فرأيت أني لو عملت بجميع تلك الوصايا لما ذقت طعاماً وحررت في الأمر فلما أن أكون مصاباً بكل تلك الامراض في آن واحد أو لا أكون مصاباً بواحد منها ووجدت إني لو تركت نفسي لما خرجت عن تلك التجارب والتخمينات مهما تعسفت في التوصيف والتشخيص إلا إذا افترضت الداء حالاً بعض غير تلك الأعضاء التي ذكروها ولا أعلم أن جسم الإنسان يشمل على غيرها .

وبعد أن أفرغت في جو في صيدلية من الأجزاء والعقاقير نقطة بعد نقطة رأيت أن صناعة الصيادلة ليست أنفع بالنسبة إلى من صناعة

السقائين وأنه لا توجد صناعة لم يتقنها أربابها كصناعة الأطباء وعلمت أن التحسن البطيء الذي شعرت به لا يمكن أن يدعى علم الطب أى فضل فيه . بل ربما لم أحصل عليه إلا خلسة من الطب والأطباء .

إن هذا الخلط داء مزمن بعلم الطلب - وأقصد منه على الخصوص طب العقاقير - يجب أن يعني الأطباء بمعالجته قبل أن يجعلوا أجسام المرضى جثتا يجربون بها أصناف الأدوية والعلاجات .

عدم الاكتراث :

عدم الاكتراث لازمه من لوازم النوايغ العقريين ، فالرجل العقري عالمه في نفسه . له بدوات وأطوار غير التي يألفها الناس ولكنه لا يتخلى عنها . وللناس شعائر وتقاليد يقدسونها . ولكنه لا يلتفت إليها مثله في ذلك مثل السائح الأوربي أو الأفريقي يهبط الصين ، فإنه ينظر إلى أزياء القوم وأحوالهم بعين الاستغراب وأن كانت مألوفة عند كل فرد غيره في الصين . ويظل متمسكاً بعاداته وطباعه وأن هزا منها كل رجل وامرأة من أولئك الأربع مائة مليون الذين يدور عليهم سور تلك البلاد . كأنما العقريمة تجعل الرجل من جنس غير الذي منه بقية البشر .

على أن عدم الاكتراث قد ينقلب إلى هنة من أحسن المهنات ، يتخلق بها من لا خلاق لهم من الاراذل والسفلة . أولئك الذين ينزلون أنفسهم في منزلة لا يمكن أن ينزلهم الناس في أحط منها أو يخدعون الناس بظواهرهم وباطنهم على خلاف ما يظهرون .

مناقشة مع الأستاذ وجدى :

الأستاذ فريد أفندي وجدى أكبر داع من دعاة الدين في مصر يخاطب بلسان العقل في الدينيات . وبهذا الاعتقاد القى إليه هذه المسائل التي رأيت مناقشته فيها لازمة بعد أن تصفحت من دائرة الجزء السابع الذي خصصه للبحث في اثبات وجود الله - وها هي القيها إليه مسألة بعد أخرى :

«أولاً» انتظام العالم لا يصلح أن يتخذ دليلاً على حدوثه كما لا يصلح أن يتخذ اختلاله دليلاً على قدمه . والإنسان باعتباره زبدة الكائنات سواء في قول الخلقين أو النشوئين لا يعقل أن يظهر في العالم إلا بعد أن يترتب كل ما دونه في مراتب الخلق . وسواء حدث هذا النظام بعد اختلال أو كان على هذا الوضع من أزل الآزال فما كان ليأخذ مقره من العالم إلا وهو على درجة من النظام كافية على الأقل بنشوئه فيه . فمن أعلمـه أنـ العالمـ الـذـى يـضـمـهـ الـآنـ لمـ يـكـنـ فـيـ الـقـدـمـ «ـكـاؤـسـاـ»ـ كـاـ تـخـيـلـهـ شـعـرـاءـ الـيـونـانـ وـلـيـتـ شـعـرـىـ إـذـاـ كـانـ قـدـ وـجـدـ فـيـ ذـلـكـ الـكـاؤـسـ سـائـلـ مـثـلـ وـمـسـئـولـ مـثـلـ الأـسـتـاذـ وجـدـ وـجـلـسـاـ يـتـنـاقـشـاـنـ فـيـ وـسـطـ تـلـكـ الـهـيـولـىـ كـاـ اـنـاقـشـهـ الـآنـ عـنـ آـيـةـ الـخـلـقـ فـيـ الـعـالـمـينـ فـيـمـاـ دـعـاهـ كـانـ بـجـيـباـ .

«ثانياً» لا يمكننا أن نحكم على الشيء أنه متقن إلا إذا وقفنا على الغاية منه . فنحن نعرف الساعة أنها متقدة إذا علمنا أولاً أنها آلة تستعمل في قياس الوقت ثم علمنا ثانياً أنها تؤدي هذا الغرض بالضبط .

نعرف أن المنزل مقسم تقسيما حسنا إذا علمنا أولا أنه محل معد للماوى . ثم علمنا ثانية أنه صالح تماما لهذا الاستعمال .

قال فلتير فيما نقله عنه الاستاذ في صفحة ٤٩٩ من هذا الجزء «أني إذا رأيت ساعة يشير عقرها إلى الأوقات المختلفة استنتاج من ذلك بأن لابد من أن يكون عقلا «هكذا» قد رتب لوالب هذه الآلة حتى استطاع العقرب أن يدل على الساعات دلالة حقيقة وكذلك زانى أن تأملت في آلات الجسم الإنسانى استنتاج أن لابد أن يكون عقلا «هكذا» قد نظم أجزاءه وأجهزته وجعله قابلا لأن يعتدى في الرحم تسعه أشهر متوالية وأنه قد متى باعين لينظر بها وبايد ليتناول بها الخ» .

وأذكر أني قرأت مثل هذا الكلام لروسو . ولكن روسو عكس المثل فاستدل من تركيب لوالب الساعة على أنه لابد أن تكون وراءها غاية مقصودة . وهو استدلال مردود إذ يجب أن تعلم الغاية أولا ثم يستنتاج النظام أو عدم النظام بالنسبة إليها . ولكن دعنا الآن في كلام فلتير .

ففلتير جزم بأن الساعة صنعة عاقل لأنه تحقق أنها مقصودة لقياس الوقت . فما هي اذن تلك الغاية التي تبين له أنها مقصودة بخلق العالم ؟؟ وهل يعقل أن يحكم على شيء بأنه محكم أى أنه يؤدى الغاية منه تمام الاداء من غير أن نعرف ما هي تلك الغاية ؟؟

ثم لماذا لا نقول مثلا أن الجنين لو لم يستقر في الرحم مدة الحمل طالما تمت عملا بالحياة وأنه لو لم تولد له أجهزة لما كان حيوانا . وأن

العين لو لم تكن بهذه الدقة لما أبصرت واليد لو لم تكن بهذا الوضع لما تناولت الخ بدلاً من أن نفترض افتراض فلتير :

«ثالثاً» الإحکام الشامل والتطابق التام اللذان لابد يشيران إلى القصد مفقودان من الكون . فأین هو ذلك الشيء الذي نراه ولا نود أن يصير أکمل مما هو . فالاجرام السماوية تتصادم في كل فترة فتساقط في الفراغ ، وهذه الأرض التي نحن عليها لا شيء يمنع أن تصطدم الساعة بمذنب أو سيار تائه في الفضاء فتلحق بالاجرام التي اندثرت من قبلها . ونوميس الطبيعة تشير نكباتها وطوفاناتها وأوبتها وحرائقها فتدمر ما عملت فيه نوميس أخرى ملايين السنين ، ولا يتلف ما بدأ في صنعه الا من يعلم مضطراً في الحالتين وهم يقولون : أکذلك تكون أعمال المدبر المريد ؟ وهذا الكون ليس في الحاضر وما كان في وقت مضى محکماً حيث موضع فيه للخلل أو كاملاً حتى لا شائبة فيه للنقص ، فهو يتدرج في الرق فيسد نقصاً قدیماً ويأخذ في تکمل جديداً . ونحن نعلم العوامل التي تدفعه إلى الرق فكلها منه وإليه . فنظامه هذا البدیع قد استفاده بذاته أى بعوامله ونوميسه من احتلاله ذاك . وما هذا النظام بأدلة على الاعجاز من ذلك الاحتلال لأنهما كلامها أثر لتلك العوامل والنوميس القسرية . وما قال أحد أن الكون انتظم اليوم لأن الله موجود أنه كان مختلاً بالأمس لأنه لم يكن موجوداً .

«رابعاً» إذا قيل أن الإنسان غاية الوجود كما يفهم من اعتقادهم أن أعمال الإنسان وحدها هي كل ما ينظر إليه من هذا الوجود بعد انقضائه فلماذا لم يرتب هذا العالم بحيث يوافقه كل الموافقة ؟ وإذا

كان الإنسان أحقر من أن يوضع الكون حسب ما يلائمه فلماذا إذن خلقت من أجله كل هذه العوالم التي لا نهاية لها . وكيف لا يكون ذلك الشأن لمن خلق من أجعله العالم الأول والعالم الأخير .

«خامسًا» أن حوادث الكون كلها تطبق على عوامل ونواتج مطردة وأنه حتى الطوارئ التي تغم علينا أسبابها لا تلجهنا إلى استمداد سبب لها من خارج الكون . بل أن تعليلها بعلة طبيعية أقرب دائمًا من تعليلها بعلة من وراء الطبيعة .

«سادسا» ليس في وسعنا أن نقرر أن الكون لا يكون إلا حادثا ، إلا إذا كنا قد رأينا أ��وانا أخرى مثله ثم أيقنا من حدوثها فنحن نحكم عليه الحدوث بالقياس إلى تلك الأ��وان . أما وهذا كوننا لم تر قبله ولا بعده . ومنه دون سواه نستمد أحکامنا على المادة والوجود فلماذا لا يكون إلا حادثا ولماذا لا يكون قديما ؟ وللمعترض أن يسأل من يقول : «إن الأ��وان لا تقبل القدم من طبعها» كم كوننا رأى وفي كم منها تتحقق الحدوث ؟ كما له أن يسأل من يقول : «إن المادة لا تصدر عنها الحركات والأعمال» في أي موضع غير هذا الوجود رأى المادة محرومة من هذه الخواص ؟ فإذا كان لم ير ولن يرى فكأنه يقول أن مادة هذا الوجود لا تصدر عنها الحركات والأعمال .

«سابعا» أنت إذا أردنا أن نسكت عن النظر والاستدلال أمام الغوامض الكونية فلننسكت عنهمما بين يدي العالم والرسول على حد سواء . فلا نلحف في سؤال العالم الحاف المتعنت : كيف انفصلت الأرض عن الشمس ؟ ومتى انفصلت ؟ كأنه كان من شهود ذلك

الحدث البعيد ، ونحن نسكت عما هو أغمض من ذلك وأشد منه أشكالاً أمام النبي والرسول .

«ثامناً» أن العدم تصور فاسد من تصورات الإنسان . فلا وجود إلا للوجود ولا حقيقة إلا له . فنحن نرى عدماً ولا يمكن أن نرى عدماً فمن أين لنا أن نتوهם غير الوجود ؟ فلا مقتضى مطلقاً لتصور الوجود كائناً بعد عدم أو صائراً إلى عدم . كما أنه لا مقتضى لتصور الوجود منفصلاً عن الأزلية والأبدية . وما ألم بوهם الإنسان خيال العدم إلا من هذه الاستحالات التي كانت تظهر له في بادئه عهده تارة كأنها خلق وإنشاء وتارة كأنها تلاش وفناء . وما هي في الحقيقة إلا انتقال من صورة إلى صورة الوجود ولو لا ذلك لما خطر العدم في عقل ولا ورد على بال . في ولو لا ما سمعت إنساناً يسأل : «من أين جاء الوجود ولا إلى أين يصير . لأنه لا يتصرّر غيره ولا يبدو له سواه» .

«تاسعاً» إن الإلهين هم المطالبون أولاً بالإثبات لأنهم هم المدعون ولا يطالب المحددون به لأنهم منكرون ليس إلا ولا يصح أن يطلب الدليل من ينكر قضية لم يقم على إثباتها دليل .

كذلك دحض حجة الخصم لا يفيد صحة حجة المدعى . بل كل ما يفيده أن الدعوى لم يقم ببرهان على بطلانها كما أنه لم يقم ببرهان على تأييدها .

هذه هي المسائل التي طافت بذهني وأنا أقلب صفحات الجزء السابع من دائرة معارف القرن العشرين وربما طافت كذلك بأذهان

الكثيرين فوجهتها إلى صاحب الدائرة لعله إذ يدفع هذا الإلتباس يرفع خرطوم الوسوس الخناس عن صدور كثير من الناس .

سح البحر :

أيا بحر لو كنت الكريم كما أدعوا
قديماً لأليق المجوهر للناس
وحليت منها العاطلات على الحال
من اللاء لم يسعدن بالتبور واللأس
تدلى بامراس إلية ونيراس

فاكهة النعام :

تين الصبير وقت فا
كهة الاوابد والنعام
يحلو إذا كانت جلا
ميد الصخور هي الطعام

فنون الجنون :

الجنون فنون . وفنون الجنون كثيرة لمن يريد أن يحصيها لا أقصد
جنون السرای الصفراء ولا ذلك الجنون الأحمق الذي يعلم عن نفسه
في الشوارع والأسواق ويستلتفت من لا يلتفت إليه بالحجارة
والصياح . كلا ! بل أقصد هذا الجنون الخلفي الذي لا يسلم إنسان
تحت قبة السماء من شعبه منه . هذا الجنون الذي يقول عنه المثل
الإنكليزي «لو كان الجنون مرضًا يؤلم لسمعت الصراخ من كل بيت»
فما أكثر المجانين الذين يذهبون ويجيئون بغير جوامع في أيديهم ولا
اغلال في أرجلهم في هذا البيمارستان العظيم .

الناموس الأخلاقى :

الأصل في الأصل الأخلاق أنـهـ الحـالـةـ يـتـمـنـىـ كلـ إـنـسـانـ أـنـ يـكـوـنـ

الناس عليها ، حسب ما يبدو له أنه أضمن لعلاقاته معهم . فليست الأصول الأخلاقية بالقواعد التي تقضي المصححة بالتسكع بها . بل كثيراً ما يجيئ الأمر على عكس ذلك ولكنها القواعد التي لو جرى عليها كل إنسان لأصبح الناس كما يزعم واضعواها أسعد حالاً في مجموعهم مما هم الآن .

ولكن أليس هناك فاصل بين المطلوب والحاصل ؟ ألا يجب أن تقدر درجة حكم الإنسان على نفسه فيما يتعلق بمعاملاته مع الناس ؟ أن أولئك الدعاة والوعاظ لا يرون من داع إلى بحث هذه الاعتبارات . يظنون أنه ليس بين الخطيء وبين العصمة إلا أن يعرف خطأه . كأن كل هؤلاء البغاء والأشرار ما كانوا بغاء وأشراراً إلا لأنهم لم يجدوا من يقول لهم أن ما هم فيه بغيي وشر .

فمن قديم الزمان تكلم هؤلاء الناس عن الصدق والأمانة والفضيلة وقالوا لهم قوموا أصدقوا قوموا استقيموا ولكن حتى الآن لم يوجد ذلك الرجل الصادق الذي لا يكذب . والأمين الذي لا يخون والفاضل الذي لا يعرف ما يؤنبه عليه ضميره – وليس بخيي الضمير من لا يسمع صوته مرة – على أنه لو وجد ذلك الرجل بين ظهرانينا لكان كمن يعامل الناس بصدق يتقيى به من جانبه ولكنهم هم من جانبهم لا يتقدون به .

وليس أولئك الدعاة والوعاظ وحدهم أصحاب مبادئ أخلاقية بل أن لكل رجل تراه مبدأ أو مبادئ من هذا القبيل . فكل رجل لا تروقه حالة الناس . وليس من رجل تروقه حالتهم ، يتمنى لو

يكونون على غير ماهم عليه . فتسمع منهم من يقول : آه لو كان الناس أوفياء ! ليتهم لا يخافون ، ليت قويم لا يقسوا على ضعيفهم . ليتهم لا يدخل أغنياؤهم على فقرائهم : ليتهم لا يتباغضون . إلى غير ذلك من الأمانى التى ربما لم تكن أبعد تحقيقاً من سن أولئك الأخلاقيين .

يقولون ذلك كلما مسهم أذى من تلك النقائض التى ينقمونها من بعضهم . على أن كلاً منهم ينتظر حتى يبدأ الناس بالإقلال عنها ليقتدى بهم . وما من أحد يرضى أن يجعل نفسه مثله لغيره . وما من أحد يضع يديه في الانشوطه وهو يرى الأيدي كلها ممدودة إليه . فالناس الآن وفي كل زمان يكذبون ويمارون ويتساهلون في الوجبات . ولا مندودة لهم عن ذلك ما بقى ينهم هذا التدافع والتجاذب على وسائل الحياة .

الحكومة في الشرق والغرب :

من المسائل الحرية بالنظر أن شكل الحكومة لم يكتسب شيئاً من تعديلاته وأدواره في الشرق كله . لاقديماً كاً كان يقع مراراً في روما واليونان ، ولا حديثاً كاً وقع في فرنسا وإنكلترا من التجارب المتتابعة وراء تكوين الحكومة الصالحة . ذلك بالرغم من أن الإرتباط والضغط اللذين كان يشيرانهم إلى قلب الحكومات قد نزل اضعافه بالشرقيين . ولكن مع هذا الفرق البسيط - ربما كان فيه كل السبب - أن الاستبداد لا يؤثر هنا على الأحوال المعيشية تأثيره هناك لتيسير الازراق وقلة ما للقوانين وكيفيات الحكم من المداخلة في تحصيلها .

وقد يكون هذا الجمود على شكل واحد من اشكال الحكومة ناشئًا من انطباع الشرقيين على قلة الاهتمام بالعموميات تمهيد الوسائل الخصوصية . فإذا استولى أحدهم على الملك استقر له الأمر وانقاد له الجميع . وكثيراً ما يتفق أن خادماً من خدم البلاط يبسط نفوذه في المملكة فيغتصب الملك لنفسه ، وييفي الحاكم التصرف إلى أن يزحره عن مكانه متغصباً آخر يأنس من نفسه الصولة والنفوذ . والناس بمعزل عن هذه الانقلابات ، يسلمون بها ولا يشتركون فيها ، فهي - أي حكومة الشرق - لا ترتكز على الشعب فلا تتحول باختلاف مصالحه ولا الشعب يعتمد على اختلاف هوياتها . فقد أنشأت نفسها بقوة ساعدتها ولم ينشئها الشعب كما هو شأن الحكومات في الغرب . وقد شدت أزرها في كثير من المواقف بالسلطة الدينية التي رأت من مصلحتها أن تتبادل واياها المعاضة والتناصر ، فجمدت جمود عقائد الأديان في وهم الإنسان .

في سالون حلاق

ما بالها تطفر كالغزال ساحرة باليه والجمال
هيفاء من أوانس الأندلس ذات جبين كالنهر المشمس
قد أسرت حالية بالنور في وجنة ومقلة وتحضر
من كل زهر ناضر الرواء والزهر لا ينضر في الشتاء
ثم استوت ف مجلس هناكا تمد للخلائق الشباكا
اماها المرأة فيها يظهر ماليس في غير المرأى تنظر
تمثالها في صفحة الببور مرتسما بريشة من نور

وكان يرعاها أربك كيس
وصوب الطرف إلى الرذيلة
كمن يهاب الشمس في السماء
فساءها حتى إلى الطف النظر
الحسن أن ضن به المليح
الزهر إذ يزكوا لغير ناشق

فقر في موضعه لا ينبع
يرمق تلك المقدمة الجميلة
فيترضى بقرصها في الماء
اهكذا تدخل ربات الخضر
كامل إذا يدفعه الشحيم
والبدر إذا يدوه غير رامق

فأقبلت تضحك للقرين
قالت إلا تنظر للمغورو
مازال يرנו، نحوها بالطرف
فأوْمأ القرين للحلاق
وقال قل للحاجب الصديق
من يكثر اللمع لها في الليل

عن ثؤلؤ في ثغرها مكتون
يحدق في المرأة كالمسحور
حتى لقد انجل فيها طبقي
يتسنم ابتسامة الاشواق
لا يكسر المرأة بالتحديق
قد يعتريه خبل في العقل

قال «عفوا ياقرين الشمس»
«ما في المرايا ثم من شيطان
يُخاف منه المس للانسان
يُوحى لنا الحسن كما تنزل
بل أن فيها ملكا مكملأ
ملكت منه الذات واستأثرتا
فقر بها مغبطة هنتتا
ودع لنا هذا الخيال مغتها
فانه ليس لزوج حرما»^(١)

الارتفاع ودلالة النساء :

لا يرغب الرجل في المرأة في الشعوب المنحوطة إلا للعلاقة التي

بين كل ذكر وأثني . فالمرأة في تلك الشعوب يهمها أن تكون مرغوبة من هذه الوجهة . والدلال ومنه الخفر والخيلاء وترطيب الكلام والتنفس والزهو باستكمال المحسنات الانثوية من قرائن تلك الرغبة والمحركات لها أيضا . أما حيث تكون للمرأة مزايا تحب فيها غير هذه المزية كسلامة الذوق الحديث ودقة النظر ومشاركة الرجل في تدبير شعونه ، فالدلال من هذا النوع لا يحس إلا بقدر ما يكون طبيعيا في المرأة . فالعربيات والسودانيات أكثر دلالةً من المصريات والسوريات ، والمصريات والسوريات أكثر دلالةً من التمسويات والايطاليات والفرنسويات ، وهنَّ أكثر دلالةً من الألمانيات والأنكليزيات والأروبيات بوجه عام أكثر دلالةً من الأميركيات .

وربما جاءت السوبرمان التي يمنوننا بها بمجردة من كل أثر من هذا الدلال .

طمأنينة اليأس : ماذا أصنع ؟

سؤال إذا ألقاه المصايب على نفسه فعجزت عن الجواب ، هان عليه المصايب . يقوله المختضر والمقضى عليه بالاعدام ويقوله المفجوع بعظامه الرزايا وفواحة الآلام . يقوله فتطرق نفسه أطراق الرضى والاقتناع . بهذا السؤال «الاسفنكسى» يرقد ساكن الروع جان سيساق غدًا إلى ساحة القتل . بل بهذا السؤال يتربى ذلك الجانى ساعة القضاء عليه كمن يتربى ساعة العرس ، كى يتخلص من وساوس لعل وربما . إلا أن من النفوس طائفة لا تسكت عن هذا

السؤال. في حال من الأحوال فتجيب عليه بالصدق والكذب .
بالممكن الحال . فالوليل لأمثال هذه النفوس الحمقاء ! .

الحنان لعلة :

الحال اشد عطفاً من العم لأن الرجل ينافس أخاه بابنائه ولا ينافس
أخته بهم . والمعمة أشد عطفاً من الحالة لأن المرأة تنافس أختها بابنائها
ولا تنافس أخاهما .

الرأي العام :

لو استطعت أن أتمثل الرأي العام في صورة شخص واحد لرأيته
فيلمانياً غاشماً . هائل الجثة صعب المراس ضعيف الذاكرة . سريع
التقلب . قريب التهيج . سهل القياد . متناقض الأفكار يقبل كل ما
يقال له من غير تدبر ولا امعان . والساسة والزعماء وجماعة الصحف
والاحزاب مختلفون بذلك العملاق الغمر يملكونه ويصادونه فلا يكاد
يصدقهم بهذه الاذن حتى يكذبهم بذلك ، وهو تارة يهم بالبطش بهم
وتارة يضحك لهم ملء شدقيه . ولا بد أن يكون كذلك مجموعة
أفكار خليط من الناس لا يتحمل أيهم تبعه رأيه شخصياً .

هواجس ما بين القبور :

كلفنا بالحياة فما الذي أغراانا بمحبها . وكرهنا الموت فلماذا
كرهناه ؟ «سؤال فيلسوف الفلاسفة وأغبي الأغبياء سيان في العي
عنه» . بل أن ذلك الفيلسوف - ولست اهينه - كالحيوان الابكم
والجماد الاصم سواء في الصمت أمام هذا السؤال .

سل حجرًا : لماذا يأتلف بذراته ويحفظ بشكله . سله عن هذين

وهما مبلغ مالديه من حياة ، ثم سل من تشاء من جهابذة العلم وأساطين المعرفة : علام آثر الحياة وكيف بدا له أن يتمسك بهذا البقاء ؟! أنك لا تسمع منه صوتاً أو سمع من سكوت ذلك الجمامد .

ألا أخلق بهذا الذي يدعونه تنازعاً على البقاء أن يدعى سباقاً إلى الفناء . سباقاً من العفاء مبتدأه ومتناه إلى العفاء . نحن كلنا في ذلك المضمار متلاحرون . السباق منا كالمسبوق والأول والآخر سواء .

فهذا المالك المطاع . الذي لا يفرض على عباده أكثر من الإيمان إلى الغراء برهاناً على التذلل أمام عزته . والتتصاغر لدى عظمته . دعه اليوم عزة السلطان وابهة المقام . ثم عد إليه بعد أيام . إلا ينتثر على تلك الغبرا تراثاً تمشي عليه الدواب وتطأ فوقه الأنعمان ؟ .

وهذا الألمعى الليب : الذي تتلاؤ كلاماته في ظلمة الجهل تلاؤ النور في حلك الليل . تتنافس يتيمات الدرر بأقواله تنزيهاً لها عن لفظ هذا الأنام ونحاكي بنفائس الأعلاق معانيه أغلاء لها عن سائر الكلام أنظره إلى أيام .. فما أقرب معدن ذلك الجوهر إلى معدن هذا الرغام عند كيماء الحمام .

وهذا التياء بجماليه . الفتان بدلاته . الذي تهافت الأبصار على لمحه إليه . وتتلهم الشفاعة إلى قلبه منه - - امهله أيضاً إلى أيام .. ثم انظر أين منه تحت الثرى لحاظه الساحرة . وطلعته الباهرة ووجنته الناصرة ومراسفة العذبة الطاهرة . ألا ترى أحسن محاسنه غباراً ينفض عن الأحذية وتصان عنه الأقدام ؟

وذاك الكمى المغوار الذى حرم على الأسود لحمه . وسمى في ملاغم التمور دمه . ماباله يسرح الدود منه في مكامن الشدة والغرام .
وتتمكن الهوام من بدنـه حيث لا يبلغ لانصل ولا حسام ؟

فما هذه الحياة لا كانت الحياة ! حبينا على الكره منه . ونعيش على الكره منه . وتنسل فねب أبناءنا الحياة على الكره منا ونحبها ونـحن على ذلك مـكرهـون .

ما هذه الحياة لا كانت الحياة ؟ كلام يعجم على عقولنا ويرن صدأه في أعماق ضمائرنا والموت من فوق منابر النعوش ينادينا ، بلسان يسمعه الاعجمي كالعربي ، والاصم كالسميع ، والبعيد كالقريب قائلا : «أيها الناس إن حياتكم هذه إلا احتضار طويل . تعالجون له كلما استطعتم إطالة ومدا . ولا تعجلوه اليوم قبل غدو الساعة قبل الساعة التي بعدها أخرى يكم لو كنتم تعقلون» .

نقض اللغات :

كم من كلمات على السنة الناس بلا معنى وكم من معان في أفكارهم بلا كلمات .

اقتراح

لست أدرى لماذا لا تفتح حديقة الحيوانات أبوابها سحراً في أيام من فصل الصيف والربيع . فيشاهد الزائر الطبيعة تفرك جفنيها من النعاس وهي في ثياب النوم . ويرى كيف تنهض من فراشها بين جمادها ونباتها وحيوانها . ويسمع ذلك اللحن المؤلف من زئير السباع

وصياح الدواب وتغريد الطيور وزقاء العصافير وعزيف الصبا وحفيف الأشجار . أيضن مدير الحديقة أنه يحب زواره يمشهد أبدع هذا في النهار ??

غشاء المدينة :

أن هذه الظواهر المدنية ليست عميقه الأثر في نفس الإنسان فإن البواعث التي تخرجه عن هذا الطور السطحي مثل الغضب الشديد والجنون والدافع عن الحياة تعيده إلى استعمال أبشع وسائل العراق الوحشى كالنهش والعض والتخديش بالأظافر لاسيما في الصغار والنساء . والواقع متعدد عن المجانين الذين أكلوا جوارح الأحياء ، والمقتولين الذين أنشبوا أنياهم في أجسام قاتلهم وقضوا من أعضائهم ما وصل إلى أفواههم ، طمعا في الخلاص .

وحش في غير لقاب :

الإنسان أشد الحيوان ضراوة . يفترس من البر والبحر والهواء وما هو بمضرر كاضطرار الوحش إذ ترد عنها قوارض السغب ولكن ليتلذذ ويفتكه بتنوع الألوان واختلاف الطعام وكما أن السبع قد يغتال فريسته من أجل نهشة من اللحم . كذلك انسانا قد يسطو على شرف أخيه وطمائنته فيسلبها منه من أجل لذة فارغة لا يضيره الاستغناء عنها . فالوحشية ليست في البرئ والناب أكثر منها في الشوكة والسكين . وليس هى في الفتوك والاغتيال باقبح منها في الافك والاحتياط .

وما في الغول والسعلاة طبع وهذا المرء من شرواه خال
وكم في الناس أن تنظر إليهم طبائع ما تراها في السالى
تربيتنا الدستورية :

إلى الآن يخيفون الأطفال في الأرياف البعيدة بالعسكرى يخافون
من كل لابس الطربوش كخوفهم من العفاريت والعيلان .

التنافس سلم الرق :

يضيق مجال التنافس في الاقطان الزراعية البحتة التي لا تعمل فيها
الصناعة فتبطئ حركة التقدم . لأن المجانسة الطبيعية في نتاج الزراعة
قد أوقفت التحسينات الصناعية عند حد محدود . ولذلك بقى فلاح
اليوم نموذجاً لا يفوته شيء من فلاح طيبة ومفيض . فالاكواخ الطينية
والمحراث الخشبي وسراج الزيت وأثواب الصوف بلونه الطبيعي على
جلود الغنم . ومنسوج الكتان الغليظ والخبر الاسمر والسمك المملح
والجبين والبصل والكراث لا تزال على حالها في عهد بناة الأهرام .
وستبقى كذلك إلى أن تنشأ لنا صناعة وطنية نزاحم بها في سوق
الصناعات . هنا لك نضع أقدامنا على قاعدة ثابتة مستقرة ونأخذ
في الرق المتواصل المطرد .

ياليل :

ـ شمل الظلام أعلى الأكام والنور غادر طاوي الأعلام
وطغى على الأكونان بحر طام

(١) من نظم المؤلف .

نامت عوالمها ورنقها الكرى والنجم نام ما فوق الثرى
والخلق بين مهموم ونيام

والليل أرحب ما يتاح لنائم ضاقت مذاهبة بهذا العالم
وطوى على كشح من الأيام

ياليل عفية القوارق والمدى سويت ما بين الملوك ومن غدا
في حكمهم كسوائم الأنعام

ياليل أنسى الحزين مصابه وسللت من صدر العليل عذابه
وحبوته بروائع الأحلام

كم فاز فيك المعتفون بما ارتصوا وأذقتم طيب الرجا وقد قصوا
عهد الرجاء وما حظوا بمرا

وجمعت أهل العشق لم يتجمعوا في غفلة من يوم وينبع
بالروح دون تواصل الأجسام

لا يكتمون من الحياة ودادهم أو يعرضون وقد أذاب قوادهم
مثل الغضى من لوعة وهيام

أحييت من أردى الحمام وقتلا وبعثتهم من بعد أن صاروا إلى
ررم بوالى في الثرى وعظام

ياليل أنت أبى مايدعو الورى ررف على أهل المدائن والقرى
وأبسط ظلالك فوقهم بسلام

آليت أظلم من ظلامك حالكا نور يضىء إلى الشرور مسالكا
. ويرى العيون خوافي الآثام

وأعف من إنسان سوء يفسد شيطان جن في ظلامك أسود
ما قط فارق عالم الأوهام

ياليل فاحلل في العوالم سرماه إني لا فرق للنهار إذا بدا
أشباح خلق في النهار لعام

السعادة في وهم الناس :

يعتقد بعضهم أن السعادة أن تتوفر لدى الإنسان جميع مبتغياته حتى لا تعود له بغية في الحياة . وأن التعاشرة بأن يصغر الإنسان من جميع حاجاته حتى لا يكون شيء من مستلزمات الحياة إلا وهو يحتاج إليه . على أن لا أحسب هذه التعيس أحق بالانتحار من ذلك السعيد .

احترام الضعف :

تغلب آداب احترام الشيوخ والنساء في الشعوب التي من دأبها أو كان من دأبها الغزو وشن الغارات - وراقب ذلك في الأتراك - كأنهم يأنفون من إظهار البأس على من لا ينتظرون أن يفاحرهم ببأسه .

الانخفاض أساس الرفعة :

أعلا المراتب ما أقيم بناؤه . فوق النماض من بني الإنسان وإذا بدا لك أن تشيد عاليًا فاجعل أساسك "غير الأركان" سادوا الخلائق من ذوى التبغان يشقى المماكس والمخاتل والأولى لوبلا الغرارة في الأنام وما بهم من ذلة مرذولة وهوان

فضل القراء على مدينة الإنسان :

أكثر الإنقلابات العظيمة قتلت على أيدي القراء لأنهم الفئة التي ترغب دائمًا في تبديل ما هي عليه .

الحجاب - خير للرجل الذى يخىلى أن تصادفه امرأة في الطريق فيفتتن بها . أن يرجع إلى نفسه فيقوم طباعها ويلطف من شبقها . ذلك خير له وللعالم من أن يحكم بالسجن المؤبد على نساء العالم كله .

والمصلح الذى يتذرع بفضل الجنسين إلى منع الأضرار التى تنجم عن اختلاطهما . كالمحكومة التى توكل بكل فرد حارساً أو تحبس الناس جمِيعاً لمنعهم من ارتكاب الجرائم . كلها يضيع الغاية في سبيل الواسطة .

أين موضع العجب :

في جزيرة منعزلة من جزر النيل رجل إنكليزى وامرأته يقضيان الشتاء في تلك الجزيرة ثم يرhanها عند ظهور الصيف . وقد وضعا في خدمتهما نحو الأربعين خادماً بين رجل وامرأة فكانوا يقترون في تأدية أعمالهم غالباً . فتصبح بهم السيدة غضبى «عجبًا أربعون شخصاً يعجزون عن خدمة اثنين!»

نعم عجيب أن ينفق رجل وامرأة على مالا يكاد يفي بتهيئة معدات أكلهما وسكناهما في المشتى . ما يكفى للانفاق على أربعين عائلة في كافة لوازمهما!»

آداب المجاملة :

الصراحة - أى إظهار شعور النفس في حقيقته - خلق فطري في الإنسان . ولكن الرياء والمواربة والنفاق والجاملة مستحدثات

متصنعة أوجدها تداول الحاجة بين الناس . ففى القرى حيث تقتصر حاجة كل إنسان على ساعده ترى الغلاظة والخشونة في الكلام وتراءهم أبعد ما يكون في حديثهم عن الكياسة والتزويق وكذلك بين النساء الجاهلات بال حاجات المعنوية في العشرة والمسامرة وتبادل العواطف . فان الصراحة عندهن على اتمها لأنه قل أن توجد بينهن امرأة تحتاج في مؤنتها إلى امرأة أخرى . لاعتمادهن جمیعاً من هذه الوجهة على الرجال .

ومتى ازدحمت الأعمال بتقدم العمران واعتمد كل عامل في عمله على ذاته ، قلت كذلك المحاملات الفارغة واقتصر الناس من الكلام على الضرورى المفيد ونبذوا اللغو والهدر .

وربما كانت هذه الجفوة التى عرف بها العنصر السكsonianى في ألمانيا وأميركا وانكلترا من لزائم الاعتماد على النفس واستقلال الفكر وها الخلقان اللذان امتاز بها أبناء هذا العنصر بين عناصر البشر كما يمكن أن نرجع بهذه الجاملة المستسجمة بينما إلى عدم استقلالنا والتعويل على غيرنا قبل أنفسنا في قضاء حوائجنا .

محك المعجزات :

للفيلسوف الانكليزى دافيد هيوم ميزان دقيق يزن به المعجزات . قال في بعض فصوله ما معناه : إذا أخبرك رجل عن معجزة فانظر إن كان تكذيب ذلك الرجل مستحيلاً أبعد من استحالة وقوع تلك المعجزة فصيصة»

فمثلاً إذا جاءكَ رجلٌ وقالَ أَنَّهُ رَأَى الشَّمْسَ تَطْلُعُ مِنَ الْغَرْبِ
بَعْدَ نَصْفِ اللَّيْلِ. فَإِذَا كَانَ وَقْوَعُ ذَلِكَ الْأَمْرِ الْخَارِقِ أَقْرَبَ إِلَى
الْاحْتِمَالِ مِنْ كَذِبِ رَجُلٍ أَوْ مَائَةِ رَجُلٍ مِثْلِهِ أَوْ أَلْفِ أَوْ مَلِيُونٍ فَصَدِقَ
الْمَعْجَزَةُ وَلَا فَاقْطَعَ فَانِّها مَلْفَقَةٌ.

حقيقة الشعور بجمال التصوير :

فِي اسْتِحْسَانِنَا لِلصُّورِ^(١) شَيْءٌ مِنْ الْأَعْجَابِ الْخَفِيِّ بِالْإِتقَانِ
الصُّورِ. فِي تِفَاوْتِ اعْجَابِ النَّاظِرِ عَلَى حَسْبِ الْدَّرْجَةِ الَّتِي يَقْدِرُهَا
بِالْإِتقَانِ فِي نَظَرِهِ. فَصَاحِبُ النُّوْقِ السَّادِجِ يَكْتُفِي بِتَخْطِيطِ
«كَرُوكِي» عَنْ بَعْدِ الشَّكْلِ الْمَرْسُومِ. فَلَا يَطْالِبُ الرَّسَامُ إِذَا رَسَمَ
رَجُلًا بِأَكْثَرِ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ بِهِ كَامِلًا لَا يَنْقُصُ عَضُوًّا مِنْ أَعْصَائِهِ.
فَيَبْحِثُ عَنِ الرَّأْسِ وَالْعَيْنِ وَالْأَنْفِ وَالْأَذْنِ إِنَّمَا هُوَ عَلَامَةٌ ظَاهِرَةٌ
فِي الرَّسَمِ أَمْ لَا ثُمَّ لَا يَعْنِي بِمُضَاهَاتِهَا عَلَى الْأَصْلِ. يَطْلُبُ مِنْهُ رَجُلًا
لَا يَلْتَبِسُ عَلَيْهِ بِالْقَرْدِ أَوْ جَمَلًا لَا يَلْتَبِسُ بِالْزَّرَافَةِ.

ذَلِكَ انْتَهَا تَعُودُنَا إِنْ نَعْجَبْ دَائِمًا بِالصَّانِعِ فِي صُنْعَتِهِ عَلَى قَدْرِ مَا
اسْتِلَزَمَتْهُ مِنَ الْمَحْدُقِ وَالْقَدْرَةِ. وَعَلَى قَدْرِ مَا لَدِنَا مِنْ ادْرَاكِ ذَلِكَ
الْمَحْدُقِ وَتِلْكَ الْقَدْرَةِ. فَنَحْنُ تَرَوْقَنَا صُورَةُ الْيَدِ أَكْثَرُ مِنَ الصُّورَةِ
الشَّمْسِيَّةِ وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ فِي الْوَاقِعِ أَضْبَطَ مِنَ الْأُولَى وَادْقَ مِنْهَا اِنْطِبَاقًا

(١) عَنِيتُ بِالصُّورِ هَنَا. الصُّورُ بِجَرْدِهِ عَمَّا تَنْقَلِهِ مِنْ احْسَاسِ اصْحَابِهِ لَأَنَّ هَذَا فِي
الْحَقِيقَةِ غَيْرُ ذَاتِ التَّصْوِيرِ. وَقَدْمَتِ الْإِتقَانُ فِي الْعَمَلِ عَلَى مَغْزَاهِ لَأَنَّ الْأَمْرَ الْمَطْلُوبُ أَوْ لَا
وَبِدُونِهِ لَا يَعْدُ الْعَمَلَ تَامًا. فَالْأَخْرَسُ الَّذِي يَفْهَمُنَا آلَامُهُ بِإِشَارَاتِهِ لَا نَعْدُهُ خَطِيبًا مُؤْثِرًا.
وَكَذَلِكَ الْمَصْوِرُ الَّذِي نَفْهَمُ مَغْزِيَ صُورَتِهِ بِالرَّغْمِ مِنْ خَلْلِ تَصْوِرِهِ لَا نَعْدُهُ مَصْوِرًا.

على الأصل . إلا أن استخراجها ليس فيه ما يشبع حاسة الغرابة .
لأنه لا يشف عن البراعة التي يشف عنها استخراج الأولى . ولو كان
لإعجاب بالصور سبب غير هذا السبب ل كانت الثانية أولى
باعجابنا .

اعمار الموقى :

قلت هذه الأبيات على قبر صديق زرته بعد عام وقد مات في
الناسعة عشرة .

قد مرّ عام وانتا من القبور حسبنا
اليوم عشرين عاماً تحت التراب بلغنا
سيان يوم وجيل في عمر من بات ميتا
بنات اوربا على الإبل^(١)

قل للحسان على المطى دوا كضايا
رفقا بأعنق المطى قليلا
ادنى لاعماق النفوس مثولا
اما خفقن وحسبهن ذميلا

تقسيم الترکات :

إذا مات رجل عن مائة ألف جنيه وخلفه ورائه ابنا . فكيف
يحق لهذا الابن الاستيلاء على جميع هذا المبلغ ؟ وبأى مسوغ يستحول
ذلك الولد هذا المقدار من ثروة الأمة ؟
نعم أن على الوالد ان يربى ولده . وله أيضا ان يعينه على انشاء

(١) قلبت في سباق لسيدات على الجمال .

مستقبل له في الحياة . فليكن الامر كذلك فليس في هذا نزاع . فإذا مات ذلك الأب فلتقم الحكومة مقامه وتتولى تربية ولده وتمده متى حان له أن يعمل لنفسه بما يبدأ به عملا من الأعمال . ولتركه بعد ذلك يلاقي ما يستحقه بجدارته من نجاح أو فشل وتنفق الباقي في تحسين حال الجموع بما لا يمكن أن يأتى على يد فرد من الأفراد .

محادثة مع أخي الصغير . أمام البنك المصري :

قرأ الغلام على لوحة المصرف الكبير
«البنك المصري» فصاح بي : أهذا محل البنك ؟؟

قلت : نعم ، أنه هو محله

قال : أين هو إذن ؟؟

قلت : هذا البيت الذي تراه أمامك .

قال : لقد كنت أسمع الناس يقولون - أخذت من البنك - البنك أعطاني - البنك يطلب من فلان - فاحسب أنه رجل كبير كثير الأموال - يجلس في محله وينفح الناس بالنقود كما يطلبون .

قلت : أنه كذلك ، رجل أو رجال كبارون . لا بالجسم الضخم ولا بالشعر الأبيض ولكن بالذهب . وهم كما حسبت . ينفحون من تسمعهم من التجار وأصحاب المزارع والعقارات بالنقود إلا أنهم لا يطيقون كلفة الجلوس ومد اليد بالفلوس ، فهم ينامون هناك على أسرتهم وييغثون جنحها تدور وتنحدر من يد إلى يد ومن كيس إلى كيس . ثم تعود أيديهم وأكياسهم في آخر الدورة أضعافاً مضاعفة .

قال : وإن أراهم يزنون الجنيهات والريالات في الموازين فبكم يا
ترى يبيعون الأقة ؟؟

قلت : إنهم يبيعون الدرهم بدرهمين .

قال : وهم لاء الصيارة والبوابون الذين يزنونها ويصفونها
ويحملونها . ألا أحسبهم أسعد العمال حالا وأكثرهم مرتبات
وأجوراً .

قلت : كلا ! بل هم في ذلك عمال كبقية العمال .

قال : فبكم أجرة هذا الباب .

قلت : كأجرة ذلك الباب .

قال : وهذا العامل .

قلت : كذلك العامل .

قال : عجبا ! أعامل البنك وهو لا يقلب يديه إلا في الذهب
والفضة يأخذه عامل الأوراق والخابر والأقلام ؟؟

قلت : أى نعم : كذلك قضى الناس : أن يكون أقلهم حظا من
المال أكثرهم اشتغالا فيه .

قال : إننا نحن الأطفال بمثيل ذلك في العابنا .

قلت : ولكننا نحن الرجال ذوى الشوارب واللحى نرضاه في
شرائنا وأعمالنا فماذا تقول ؟؟

فبها الغلام وألقى بكرته أمامه ثم عدا في أثراها !! .

أين الحقيقة :

أين الحقيقة ؟؟ لاحقي
الناس غرق في الهوى
إن الحقيقة غادة
كل يوم بها فان
كم أشرق الحق الصر
والناس لو تدرى خفا
لآخر إلا أنه
لقة كل ما زعموا كلام
لم ينج غر أو امام
كالغيد يضمها اللثام
لاحت لهم صدوا وهاموا
اح فاعرضت عنه الأنام
فيش يروق لها الظلام
لآخر في الدنيا يرام

ولما نشرت هذه الأبيات في الجريدة نشر كاتب في العدد ٣٣٦٠ من اللواء مقالا افتتاحيا تحت عنوان «يرون الحقيقة ويمارون فيها» قال منه «إن الذين ينحرفون عن طريق الحقيقة لم يضلوه ولو شاؤوا لاستقاموا فيه . ولكنهم لا يشاؤون فالحقيقة فيهم قليلة .

مثلكم مثل من يجعل بينك وبين الشمس يده إذا تعلت في السماء
ليحجب عنك نورها وهو يدرى بأنك لا يحجب فالويل لهم من
أنفسهم والويل لطلاب الحقيقة منهم .

نعم أن الحقيقة لا تدرك بين الذين أشربوا في نفوسهم هذه الطياع ولكنها غير مجهولة . ولا خافية . وهل يخفى النور على بصير وقد ضمن مقالته أبياتاً بهذا المعنى .

فقد ظن الكاتب إنني أنكرت الحقيقة مطلقاً . وليس هذا مرادى ، فالحقائق من صنف $(4 \times 2 = 4)$ كثيرة لا تختصر ولا تنكر . ولكن

الحقيقة التي عنيتها ليست من طراز هذه الحقائق . فهي الحقيقة الكبرى . الحقيقة الشاملة التي ينضوي تحتها كل ماعداها من حقائق ، فمن هو ذاك الذي يحسب الكاتب أنه يعرف هذه الحقيقة ويماري فيها ؟ تلك أكبر من أن يعرفها أحد فيكتمها . بل تلك أسطع من أن يقابلها بصر إنسان .

خلود الفنون :

تساوى الآن أرباب القرائح والفنون . فلم يعد الشاعر ينفرد ب الخلود ثمرات قريحته عن زميليه المصور والمغني – فهواسطة التصوير الشمسي الملون أصبحت الصورة تنقل من قرن إلى قرن من غير أن يذهب تقادم العهد برونقها . وبالفنونغراف والأنواط الموسيقية أصبح في الإمكان حفظ أصوات المغنيين وألحان الموسيقين مئات السنين بعد أن كانت تخرج من بين شفاههم فيلاشيا الهواء .

نقد الكتب :

يمحسن بالقارئ أن يعيد تصفح الكتب التي يقرأها مرة في كل ثلاث سنين على الأكثـر . فإـنه يضاعـف انتـفاعـه بها ولا تـفوـته طـلاـوةـ الجـديـدـ فـانـهاـ تـتـغـيـرـ فـيـ نـظـرـهـ حتـىـ لـقـدـ يـظـهـرـ لـهـ كـأـنـهـ يـقـرـأـهاـ لـلـمـرـةـ الـأـوـلـىـ فـيـرـىـ فـيـ مـعـانـيـهاـ وـدـقـائـقـهاـ مـاـ كـانـ لـاـ يـنـتـبـهـ إـلـيـهـ مـنـ قـبـلـ كـاـمـ يـبـدوـ لـهـ مـاـ آـخـذـهـ وـأـغـلـاظـهـ مـاـ كـانـ يـخـفـيـ عـلـيـهـ . وـرـبـماـ تـغـيـرـ حـكـمـةـ عـنـهاـ إـلـىـ نـقـيـضـهـ فـيـرـوـقـهـ مـاـ كـانـ يـرـفـضـهـ وـيـرـفـضـ مـاـ كـانـ يـرـوـقـهـ مـتـرـفـيـاـ مـعـ اـرـتـقاءـ مـعـلـومـاتـهـ .

وباعادة تلاوة الكتاب في ظروف مختلفة بتجدد القارئ عن تأثير الظروف عليه في قراءته ويتخلص إلى المعنى المقصود .

اسحاق أياز

نشرت هذه الأرجوزة في العدد ٩٧٦ من الجريدة الصادرة في يوم ٢٦ مايو سنة ١٩١٠ :

قد أقبل الريبع بنشره يضوّع
ففاحت الزهور وصاحت الطيور
حديثها تلحين ولنها شجون
سجية فطرية من قدرة سرية
ماركت مزماراً أو هذبّاً أو تماً

* * *

الورد في البستان ييل بالأغصان
يسطوا بلون الأفق عند احمرار الشفق
كأنّه الخدود تهفو بها القدود

* * *

والفل في الرياض كالحدق المراض
يرنو بمحظ فاتر لكل وجه زائر
مختلف الأوراق مزدوج الطيّاق
كنجمة الصباح يامن جفاه الوسن
وحالفته المحن

أزرت به العيون ومله القرين
الفل طرف أحور لكل وجه ينظر
لا يغمض الدلال منه ولا الملال
يرمز للغافف بلونه الشفاف

* * *

أقصده النحول والنرجس الجميل
لا يستقيم مطلقا ما باله قد أطرقا
في حضرة التبوع كالتابع المطير
فارتد مستطيرا أم أبصر الزهورا
من فتنة الحسان وعاذ بالرحمن
عن دهره في شغل كالناسك المعتزل
ما جال قط بالبصر قد أنكر الجمالا
يحسبه ضلالا كأن من سواه ليس هو الإله

* * *

من جانب القرنفل وفاح مثل المندل
وحلية الأبار ياسي____د البار
أنيملات الغيد أدميت في التقليد
ما عنك إلا راوية طيات ثوب الغانية
في ورق لطاف مسن____ن المخوافي
مثل ثنابا الطفل تخالها في الشكل

ضاحكة للام ناغته بعد ضم

* * *

مبيضة النواحي	ودارت الأقاحى
دارت عليها الراح	كأنها الملاح
وافتربت الشغور	فاهتزت الخصور
جدلاته لا تسأم	يا ألف ثغر يسم
والطيب عنها يعرف	الشهد منها يرشف
أو يعبس الجبين	كيف يرى الحزين
في محضر صبور	في محضر صبور
بوجهك الملبح	بوجهك الملبح

* * *

كالبدر حين يسفر	وأشرق النيلوفر ^(١)
في الصبح والمساء	يختسو إلى ذكاء
في هيكل المحس	كالراهب الحبيس
والتسلك والصيام	أتلفه القيام
فاصفرا كالمفؤود	فاصفرا كالمفؤود

* * *

كأنه المذبور	وانتشر المذبور
طرازه مختلف	وoshiة مختلف
أو خيط نور في قدح	كأنه قوس قزح

(١) عباد الشمس.

أو لعب الأزاهـر في موسم المسـاخـر
بالـورـق الـمـلـون من كل صـبغ مـتقـن
فـالـأـحـمـر الـخـضـبـ وـالـأـصـفـر الـمـشـوـبـ
كـالـثـغـرـ إـذـ يـفـتـرـ وـالـوـاـضـحـ الـحـمـرـ
شـفـاهـةـ لـاـ تـطـبـقـ يـاـ حـسـنـاـ لـوـ تـنـطـقـ

كـالـشـيـخـ يـسـرـىـ وـاهـنـاـ
حـدـيـثـهـ الـقـدـيـمـاـ يـحـدـثـ النـجـوـمـاـ
وـحـلـقـتـ عـلـيـهـ قـدـ أـقـبـلـتـ عـلـيـهـ
مـاـ رـاقـ لـلـنـجـوـمـ وـرـاقـ لـلـنـسـيـمـ
وـأـنـصـتـ اـخـلـاسـاـ فـأـمـسـكـ الـأـنـقـاسـاـ

وـالـبـدـرـ فـيـ سـمـاءـ يـسـبـحـ فـيـ السـنـاءـ
مـجـرـ الـأـهـمـاـبـ فـذـلـكـ الـعـبـابـ
وـلـاحـ نـخـمـ هـالـىـ مـشـمـرـ الـأـذـيـالـ
كـالـخـنـجـرـ الـمـشـهـورـ يـعـمـلـ فـيـ الـدـيـجـورـ
فـانـقـضـ زـنـجـيـ الدـجـىـ فـيـ دـمـهـ مـضـرـجـاـ
وـأـقـبـلـ النـهـارـ يـحـفـهـ الـأـكـبـارـ

يـأـيـهـ الـنـيـامـ قـدـ أـدـبـرـ الـظـلـامـ
الـسـمـاءـ وـالـأـرـضـ الـسـمـاءـ

والعشب والنوار والطير والأشجار
والحوت في البحار والوحش في القفار
تهض للبكـور قبل انبـاق النور
فـما هـذا النـائم من عـنصر ابن آدم
قد هـalf الطـبـيعـة في هـذه الشـرـيعـة
مـذ جـعل القـنـديـلا عن شـمـسـه بـدـيـلا

* * *

لو أـنـصـفـ الزـمـانـ وـأـسـعـفـ الـامـكـانـ
ـمـاـ أـشـرـقـ النـهـارـ أوـ دـارـتـ الـأـدـوارـ
ـإـلـاـ عـلـىـ الـرـيـسـعـ وـزـهـرـهـ الـبـدـيـعـ

الانعطاـفـ :

الـسـرـ كـلـ انـعـطاـفـ اـسـتـحـضـارـ العـاطـفـ حـالـ المـعـطـوـفـ عـلـيـهـ
استـحـضـارـاـ تـتـبـهـ مـعـهـ فـيـ النـفـسـ حـاسـتـهـ فـيـ مـثـلـ تـلـكـ الـحـالـ .
فـالـمـرـأـةـ أـعـطـفـ عـلـىـ المـرـأـةـ مـنـ الرـجـلـ لـأـنـهـ أـخـبـرـ بـخـبـاـيـاـ نـفـسـهـاـ
ـوـاـخـتـلـاجـاتـ قـلـبـهـ .

وـالـمـرـزـوـ يـرـثـ لـلـمـرـزـوـ أـكـثـرـ مـنـ الـخـلـ لـأـنـهـ لـأـقـرـبـ مـنـهـ إـلـىـ فـهـمـ حـالـهـ .
ـوـالـاستـشـعـارـ بـرـزـئـهـ .

وـسـرـعـةـ الـخـاطـرـ مـلـازـمـةـ لـشـدـةـ التـأـثـرـ لـأـنـ سـرـعـ الـخـاطـرـ أـسـرـعـ مـنـ
ـغـيـرـهـ إـلـىـ لـحـظـ الـمـشـاـبـهـاتـ الـبـعـيـدـةـ بـيـنـ شـكـاـيـاتـ النـاسـ وـشـكـاـيـتـهـ .ـ وـمـنـ
ـأـهـلـ هـذـاـ الـخـاطـرـ السـرـعـ مـنـ تـبـلـغـ بـهـ قـوـةـ الـاسـتـحـضـارـ أـنـ يـسـتـحـضـرـ

أمرًا مضى فيضحك أو يبكي كما لو كان الأمر قد وقع له فعلاً في ذلك الحين . وأصحاب هذا المزاج هم الذين ينسون أنفسهم في غمار الناس ويسلبون عن ذواتهم في وسط الجماعة ، فيغلب عليهم ضعف الإرادة لأنهم لا يملكون اطمئنانهم الداخلي أمام المؤثرات المتناقضة . ولا تأتي أعمال هؤلاء إلا إذا كانوا فيها ملاحظين أو منفذين لا مدبرين ولا مدبرين . أما الأعمال التي تحتاج إلى حضور الذهن واستقلال الحكم وعدم الانقياد إلى مؤثرات الوسط . كالقضاء والسياسة وإدارة الأشغال فهم لا يرثون فيها بثأة .

والشفقة عند القبائل المتبربة مرادفة تقريرًا لمعنى الجبن لأنها بهذه المثابة عبارة عن خوف على النفس من طريق الخوف على الغير وكذلك الغلاظة عندهم مرادفة معنى البأس والصلابة .

هذا باعث الرحمة ، وهذا أيضًا باعث الضمير

فالرحمة ليست إذن حيلة اخترعها الضعفاء لصالحتهم كما افترض النيتشيون . ولكنها طبيعة من طبائع الإنسان ، والفرق فيها بينه وبين الحيوان فرق بين دماغ ودماغ . فذهن الإنسان لارتفاع تركيبه يأخذ الشبيه بالشبيه وذلك ما يصل إليه الحيوان .

شعر حافظ :

يعجبني من حافظ جلاله في شعره . يعجبني منه ذاك الجلال وإن كنت أعتقد أن الجلال الظاهر لا يتطلب من شعرائه سمواً في المشاعر أو أفضلية لها على شعراء الجمال . فعندى أن إدراك الجمال ينبغي

له تهذيب في النفس ودقة في الذوق لا تكتسبان إلا مع العلم ومعانية تمرات الفنون ، ذلك إلى استقامة الفطرة وسلامة الطبيع . وليس كذلك الجلال فإنه لقوته الضاغطة على الحواس يضطر النفس إلى الشعور به قسرًا ما دامت على استعداد له ، ويندر أن تعرى نفس عن استعداد للشعور بالجلال .

وتعجبني منه موسيقيته في شعره يوقع لك النغم ثم يتركك تغنى على ليلاك . ومن الشعراء من تجدهم كأحداث الرسامين يرسم لك الشجرة فلا يترك ورقة من أوراقها . ويلقى إليك بقصة فيقررها كما يقرر الشاهد شهادته أمام القاضي . أولئك ككتاب الهيروجليفي يصوروون لك شكلًا ما هم عاجزون عن تصويره معنى والأمني يتراءى له كأنه تلك تصاوير أحكم من الحروف تمثيلا وأوضح منها مدلولا .

وأما فيما عدا ذلك فشعر حافظ كما قال فيه الدكتور شميل ولم يرد أن يطريه «كالبنيان المرصوص متين لا يجد فيه متهدمًا» فهو يعتمد في تعبيره على مثانة التركيب وجودة الأسلوب أكثر مما يعتقد على الابداع أو الخيال .

نوبة الحفقات :

إذا كان قلبي بين جنبي مضمرا
لي الغدر لم أرعب القلب أمرىء غدرا
إذا دق لا أدرى أتبع بعدها
له دقة أم أنها الدقة الأخرى

الألياذة :

أضاع البستانى أعواماً في تعریب الألياذة لو قضاها أو بعضاً منها في تعریب نخبة من أسفار الحکمة الغربية لكان ذلك خيراً للعربية وقرائتها من نقل كل ملاحم الأقدمين إليها . نقل إلينا تلك الملحمات الضخمة التي تشم عنجهيات البدو وجلالات القبائل في كل قصيدة من قصائدها ؟ على حين بدأ الأوريون أنفسهم يجونها ويزهدون فيها . وما كانت تطرب إليها نفوسهم في عهد من العهود ولكنهم يقلدون في الإعجاب بها بعضهم بعضاً . فيكتب النقاد في تقييدها ويترنم القراء بوقائعها وأناشيدها وكلهم يظن أن غيره أعلم منه بسر ذلك الإعجاب المستولى على الجميع وكلهم في الحقيقة سواء في جهل ذلك السر وما جعل للالياذة هذه القيمة بين كتب الأدب المعدودة في لغات الغربيين إلا أنها الكتاب الوحيد الذي بقى لجامعات أوروبا جيلاً بعد جيل تدرس فيه بلاغة اليونانية وقواعد شعرها القديم . فكان يتلوها منهم كل كاتب قبل أن يكتب وكل شاعر قبل أن يشعر ويعتبرونها كما يعتبرون سفرًا يدرس في الجامعات ثم يتصدقون ويتفيهرون بها تقييق عارف اللسان المجهول وقارئ الكتاب النادر .

ولقد فقدت هذه القيمة بترجمتها إلى اللغة العربية ، فلم يبق فيها إلا تلك السخافات والحماسيات التي لا أشبهها إلا بواقع سيف بن ذي يزن وأبي الهلالى مما يقرأه كل منا في حداثته ولكن الوهم قد صيرنا لا نجرؤ على النطق بأسمائها كما صيرهم الوهم يشيدون بذكر الياذتهم وينصبون ناظمها المستر ملكاً على الشعراء .

الرشوة :

فشت الرشوة والصناعة في الشرق لأن الشرق عش الاستبداد والرشوة والصناعة تفشوان حيث تنطلق يدا الحاكم بلا مراجعة ولا تعقيب فلا مناص للشاكين والطالبين من استرضائه والاحتفاء به . أما حيث تتحصر سلطة الحاكم في تطبيق أحكام القانون فانهما يمتنعان إلا بقدر ما يفضل بعد تنفيذ السلطة العمومية من سلطة يكتسبها الموظف لشخصه .

الطريقة الانشائية :

العناية يتنميق الألفاظ عيب الطريقة الإنسانية وحسنها في أن واحد ، وهي عيدها لأن المبالغة في العناية بالألفاظ من طبيعتها أن تصرف صاحبها عن تحري المعانى والتثبت من الحقائق . وهي حسنها لأن هذه العناية من طبيعتها أن تغزّر مادة الكاتب اللغظية فتتواتر الكلمات على سن قلمه بلا تعلم أو كلفة فيجرى قلمه في الكتابة جرى لسانه بالكلام . وحقق ذلك العيب وهذه الحسنة في كتابات جماعة الإنسائين من كتاب الجيل الماضى وأعنى بهم أمثال الطويراتى وعبد الله نديم والشدياق واللقانى وأديب إسحاق وإبراهيم المويلحى وأضرابهم من زعماء الطريقة الإنسانية .

وحدة الحكومة :

لا أرى لماذا ينطر للأكثرين أن الجامعة الإنسانية تقتضى وحدة الحكومة . فليس ما يساعد على هذه الخاطر اليوم ، وربما كانت الحكومات المستقلة غدا أكثر منها اليوم عدداً . فلا أهمية البتة لوحدة

الحكومة في تكون الجامعة الإنسانية ويكتفى أن الأمم سوف تساس في المستقبل طبقاً لنظريات مشتركة في الحكم وتجربى على وثيرة واحدة في أوضاع العمران . ذلك أدعى إلى التقارب والتأخّر من اشتراكها في أشخاص الرؤساء الذين يحكمونها . ومتى وصلت الأمم إلى مستوى واحد في الأفكار والنظمات فما أغنّاها إذ ذاك عن الانضمام تحت قطعة واحدة من القماش .

القضاء والقدرة في الطبيعة :

ليس لنا في أعمالنا اختيار حقيقي بالمعنى المراد من الاختيار بل أن اختيارنا نفسه نتيجة أعمال اضطرارية تقوم بها وظائف الجسم . ومن ذلك يتبيّن مقدار ما في قول القائلين برفع القصاص عن فاقد الاختيار من الوجاهة أو عدم الوجاهة في بعض الظروف .

كلنا ننطوى :

أينعى يازهور	واهتفى يا طيور
والعبى واطربى	يا بنت الغدير
وانشرى يا صبا	نافجات العبير
واخطرى سحرة	بين سور ونور
واسعى في الدجى	ساعة يابدور
ساعة تنقضى	* ف دهور تدور
كلنا للمردى	والبرايا غرور
كلنا ينطوى	في ظلام القبور

السعادة

السعيد من لا يفكر بالسعادة .

حرب الأوهام

الخيالات الشعرية والأساطير الدينية ، مستطابة في موضعها محترمة مادامت في كسر دارها ، ولكنها متى تعددت مرة منطقة و خاطرت بنفسها إلى منطقة الحقائق ، فعقابها هناك إعدام ودمها هدر . كذلك حمام الحرم . فمن أرادها فليطلبها في موطنها ولا يخرج بها منه فيجيئها عليها وعلى نفسه بهذه الغربة المميتة .

عرض الحياة

ترى من سيرة الجانب الأكبر من الناس في حياتهم كأنهم يخالون أنهم دعوا في العالم إلى ولحة يأكلون فيها ويشربون ويقصرون ويطربون ثم ينصرفون في آخر الليل ليناموا : لعمري إذا كان هذا هو الغرض من كل حياتنا هذه فما أحرق ما يفوتنا بالموت من حياتنا . وما أشد ما ظلمتنا الموت بهذه البغضاء .

سائلو بطرس باشا :

ليت شعرى ماذا كان يعني شوق بك بقوله على قبر بطرس باشا :

ال القوم حولك يابن غالى خشع	يقضون حقاً واجباً وذاماً
يتسابقون إلى ثراك كأنه	ناديك في عهد الحياة زحاماً
يكون موئلهم وكيف رجائهم	والأرجحى المفضل المقداماً

أكان يريد أن يقول أن زائرى قبر الرجل وفيهم ساداته الأمراء الوزراء والعظماء والعلماء . وفيهم نائب مولاه الأمير ووكلاه الدول أكابر السراة والوجهاء . أكان يريد أن يقول أن هؤلاء كلهم من كانوا يقصدون من نادى ابن غالى موئلا وكهف رجاء يستعطفون من أريحية ساكنة الججاد ويستدركون من أفضاله ؟ أم أراد أن يقول كما قال الناس في هذا المعنى فاختطاً التقليد ؟ أم لعله كان لا يريد ن يقول شيئاً ؟ أم تراه يحسب أنهم ملوكوا عليه حتى دموع عينيه أنه نائحة المعية أعيد ليرثى كل من يموت من خدامها بلا مقابل ؟

لحر والخصب ينميان الأديان كنا ينميان الأغصان :

الحر والخصب كلامها طبعاً الشرق على الكسل وقلة العمل وكلام هذين من دأبة أن يطلق للتفكير عنان التصور والخيال . ويغرس النفس الاسترسال في الأماني والأمال . فالشرق من قديم الأزمان مهد لأديان ومهبط وحي الوجدان . ولبيت شعرى إذا لم تكن العقائد من نتاج الخيال . فعلام لا ينشأ إلا في الشرق أمثال برهما وبودا وكونفتشيوس وزرددشت وموسى وعيسى ومحمد وسواهم من الأنبياء وواضعى الديانات ؟

ابن حمديس :

شاعر صدت عنه الشهرة بعد أن أقبلت عليه ، وطواه الخمول بعد أن طبق ذكره الآفاق .

فلقد نسى الرجل بعد أن ذاع اسمه في العالم العربي ، فكان ينشد له في قرطبة ومراكش وصقلية ومسينى وبغداد . استدعاه المعتمد ابر

عباد من قرطبة إلى أشبيلية وكان قد اجتباه فلم يزل صديقه ملكا وأسيراً، وذكره أكثر أصحاب الترجم والسير فأشار إليه ابن الخطيب في نفح الطيب، وشهاب الدين العمري في مسالك الأ بصار، وعماد الدين الأصفهاني في جريدة القصر وجريدة العصر، وابن القطاع في الدرة الخطيرة والختار من شعراء الجزيرة وذكره هذا أيضاً في طبقات الشعراء، وأبو الصلت بن أمية الأندلسى في الحديقة، وحاجى خليفة في كشف الظنون عن أسمى الكتب والفنون، وابن بثرون الصقلى في الختار في النظم والنثر، وابن بسام ولا أذكر أين نقله ابن خلkan فى وفيات الأعيان . ونقل له بعض هؤلاء عن بعض ، وأطنبوا الثناء عليه بما عرفوا من قدره . ولكن وافق بعده أن اضمحلت دولة العرب في المغرب وانقرضت لغتهم من تلك الأمصار فضرب النسيان على اسمه مع ما ضرب عليه من معالم مدنية هناك .

ولكن هذا الشاعر المجهول قد زاد بديوانه على ثروة اللغة العربية ذخيرة أضاعها التفريط وأودع ألفاظها من المعانى مالم يضمنها إياها شاعر عربى آخر . ولقد كان ينبغي أن لا نذكر المتنبى والبحترى وابن أبي حفصة وابن هانئ وغير هؤلاء من محترف الشعر ، كان ينبغي أن لا نذكرهم مرة إلا ذكرنا ابن حمديس مراراً . هذا الذى لا يذكره قراء العربية إلا كما يذكرون شعراء الفرس والصين ولو لا «ابن» قبل حمديس لما درى أكثرنا ان كان اسم رجل أو اسم مكان . ولم يأت واحد من أشاروا إليه ولا على طرف من سيرته ولا

يبنوا مسقط رأسه وتفصيل نشأته ولعلهم كانوا يجهلون ذلك أو لعلهم لم يستقصوا كعادتهم في إيراد الترجم . فكل ما عرفته من أمره بعد أن تصفحت ما عثرت عليه من المصنفات التي ورد فيها اسمه أنه وفد على المعتمد بن عباد سنة احدى وسبعين وأربعين وفيفي تلك السنة رحل إلى أفريقيا وصاحب العرب وأن له كتاب الجزيرة الخضراء من بلد أندلس ، وقال ابن بشرون أن والده عبد الجبار كان شاعرًا وفضله على أبيه . وقد اتفق أكثر من واحد على أنه قضى نحبه في سنة سبع وعشرين وخمسين ، وقال بعضهم كان ذلك في شهر رمضان من تلك السنة وأنه توفي في جزيرة ميورقة وقيل بيجاية ودفن إلى جنب ابن اللبانة الشاعر المشهور وزعم أنه قد عمى في أواخر أيامه - ويظهر

من قصيده في المصا التي يقول فيها :

كأنما وهي في كنفى أهش بها على الثنين عاماً على غنمي

ومن قوله في موضع آخر :

ثمانون عاماً عشتها ووجدتها تهدم ما تبني وتخفض ما تعلق
أنه قد بلغ الثنين أو ناف عليها فيكون قد ولد حوالي سنة سبع
وأربعين وأربعين وأنه قد صار شاعرًا تقربه الخلفاء في نحو العشرين
من عمره .

طبع ديوانه بروما طبعة غالية من نسخة نقلها «زكريا بن خضر
بن علي بن طاهر البقاعي ثم اللبناني ثم الدمشقي» وفرغ من كتابتها
في شهر ذى القعدة سنة ست بعد الألف . واسمها في نسخة من ديوان
عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس الصقلي السرقوسي ،

ويدعوه بعض الرواة أبا محمد عبد الجبار ولعلها كنية ومنهم من ينسبه إلى الأزد .

أما الديوان فجيد أكثره لا سيما ما كان منه وصفاً أو نسيباً صانه الاهتمام عن الابتذال فلم تبته له من القدم طلية ، وله سرقات عن بعض شعراء المشارقة ولكنها سرقات ظاهرة أو هي سرقات أمام العين كما يقولون . أما فهمه للشعر فيختلف عما كان يفهمه منه قدماء الشعراء فقد تلوق كنه الشعر ونفذ إلى روح الاهتمام ، فمن قوله في الشعر .

ووجدت علم الشعر أخفى من هوى
لم تفشه عين لعين رقيب

وقال في معرض آخر :
وإذا أردت بأن تصور للمنى صوراً فسلّمها لفكرة شاعر
شعره وجداً لا صناعي ، فهو براء من المديح المتكلف والوصف
المدعى ، ولذلك تعرف من الشعر من هو الشاعر ، فكان الرجل
عنيف اللسان يترفع عن الفحش والمقال القبيح كما قال :
إني أمرؤ لا ترى لسانى منظماً ماحييت هجوا
وكان سليم الطبع جليل القدر ، فكان يرتاح المعتمد بن عباد إلى
بث شكاياته إليه ويجد سلوة في مراسلته بعد أن نفى إلى أغمات فيجييه
الشاعر بما يفعل بنفسه فعل المرهم بالجرح النغار .

أنظر كيف يمدح عن سرور قلبي بالعمل وإعجاب صحيح

بالممدوح . قال مدح أبا الحسن علي بن يحيى ويدركه أهل سفاقس
إلى أوطانهم :

يا يوم مرجعهم إلى أوطانهم أرجعت أرواحاً إلى أبدان
نزلت بك الأفراح في عرصاتهم وبها يكون ترحل الأحزان

فلذات القلوب إلى القلوب تراجعت

فِي ملتقى الآباء بالولدان

والأمهات على البنات عواطف
سر القرابة بالقرابة منهم
وتزاور الأحباب بعد قطيعة
في كل بيت نغمة ومسرة
ودعاؤهم لك في السماء ملحق
كحجيج مكة في ارتفاع عجيجهم
صيرت في الدنيا حديثك فيهم
فخر يقيم إلى القيامة ذكره

وقال يرثى جارية له غرقت :

واحشتا من فراق مؤنسة
أذكرها والدموع تسبقنى
جوهرة كان خاطرى صدفا
يا بحر أرخصت غير مكتزث

يميتى ذكرها ويحييها
كأنسى للاسى أجاريها
لها أفيها به وأحيمها
من كنت لا للبياع أغليها

卷之三

ابتها في حشاك مغرقة و بت في ساحلتك أبكىها
ونفحة الطيب في ذوايها وصبغة الكحل في مآقيها
عائقها الموت ثم فارقها عن ضمة فاض روحها فيها
أحكام ندين حكما فيها ويلى من الماء والتراب ومن
أماتها ذا وذاك وغيرها كيف من العنصرين أفادها

فهل سمعت أهدا من هذا تفجعا ؟؟ لو كانت هذه الجارية لسيف
الدولة أما كان المتنبي يكشف الشمس ويختسف القمر وينثر الكواكب
شذر مذر .

وهل فات واضعو الأناشيد الوطنية قائلا يقول قبل ثمانية قرون .
ولو أن أرضى حرة لاتيتها بعزم يعد السير ضربة لازب
ولكن أرضى كيف لي بفكاكها
من الأسر في أيدي العلوج الغواصب

و كيق يقول في الفونوجراف من هذا قوله في العود :
في حجرة أجوف له عنق نيطت بظهر نخالة حدية
يد كفا إليه ضاربة أعناق أحزانا إذا ضربه
قلت الا فانظروا إلى عجب جاء بسحر فانطلق الخشبة
وماذا أبقي لمصورة الفلكي بعد هذا الوصف .

والبدر قد ذهب الخسوف بنوره
في ليلة خسرت أواخر مدها
فكانه ممرأة قين أحmit
فمشى أحمرار النار في مسودها

فعمى أن يوفق إلى نشر ديوان هذا الشاعر وطبع يعرف فائدته
وفائدة القارئ حتى لا ينفرد بين أبياته الصادقة هذا البيت :
أني امرؤ ابني القريرض ولا أرى
زمنا يحاول هدم ما أنا بان

الشتاء في أسوان^(١)

كانون آذان بالظهور
بل كل مخضر نضير
نور تألق فوق نور
عنة بالصغير وبالكبير^(٣)
إلا على غير بصير
ل و ما وعه عذب نمير

أرق الربيع على البشير
أسوان تزهو حين يذ
في كل مربأة بها
بلد تجود له الطبيه
لا تستجن شموسها
فهراوه براء العليه

ما طب جالينوس قيس
أبداً تحوط به ودا
تعها بسور خلف سور
من كل شاهقة كان
م قلها عمد الدهور
حصن تهاب طرها والشروع

(١) هذه أسوان في الشتاء . وأما في الصيف فلها حال آخر ولكن وددت أن أشير على من يتشرف إلى استطلاع أسرار العالم الأخير بأن يقيم عاماً في أسوان . فيعلم بين شتاها وصيفها كيف تكون الجنة والنار والنعيم والعذاب .

(٢) أما الصغير فما يشاهد فيها من شتى المناظر الجامدة . وأيات الطبيعة الرائعة . وأما الكبير فمناجم الذهب التي كشفها ذلك القنصل الأميركي كي كما أداع روتر منذ شهور . وطيبة الصيني التي رفع عنها المسيو وليم دى مورجن تقريره إلى ناظر المعارف في سنة ١٨٩٥ وتابعه في ذلك الفنانون من فحصوا تربة المدينة ، وستظهر غير هذا ما سيجعل لهذه المدينة المهملة شأنها بين مدن القطر إن لم نقل بين مدن المعمور .

يولون أقفر غابها من كل مختار فخور
سرحت صوادحها واطلق م ورقة الايك السنپير
يلقن حبات القلوب م من الجوانع والصدور
الفاتنات تکاد إحداهن م من حسن تنسير
الناهدات كا ترى الا م هرام في الرسم الصغير
العهريات الشذى الكوثریات الثغور

六二

الورد في وجناتهن م يضوع في كل الشهور
المرسلات الشعر كالذ م رباب مصغرا غزير
ممنطقات بالدمقس م مؤزرات بالحرير
من كل قاع جؤذر تلقاه أو ظبي عرير

م كوان من فجر الشعور
لم تدر ما نور البدور
م ومعرض الحسن الطرير
فردوس لا للزمهرير
مثل الشموس ببرزن للا
داراهن مطاليـع
فيهن معترك الغـرا
الخور هن خلقـن للـ

Three small, dark gray gear icons arranged horizontally, indicating a section for settings or configuration.

الماء فاض على الجنا
دل والسوائل والجسور
خلجانه تنساب كالـ
حيات ما بين الصخور
متسابقات كالـ
بقاء في مجال مستدير
والنيل مصطفق كمن
قد هزه فرط السرور

متدفع الأمواج تر قص وفق توقيع الخير
وترى الزوارق كالبوا شق حوماً أو كالنسور
ن الرفع وللماء القدس
قد حار فيها العنصران
م تنوء من جهد المسير
والشمس شاخصة تكاد
م كالعروس إلى السرير
فضفاضة الأذيال تخطير
وكأنها فوق الذرى
فوق الجزاير والبرور

في النيل من أعلى القصور
حسناء ترقب قادماً
م مسحة الشفق الأخير
وعلى الروابي والهياكل
عارض الشيخ الوقور
تبعد كأن نصل الخضاب
ما كان أول مغرب
شهدت على مر العصور

* * *

كم آية في الكون أخفى م من خفيات الضمير
من لا يرى إلا العيَا ن فما يرى إلا يسير
مساويٌ المدينة ومحاسنها

التقدم الاقتصادي مصحوباً دائماً بشرور وقساوات تنكر وجه
المدنية وتدنيها في الساحة من ضرتها الهمجية . ومع ذلك فهذه
الشرور ضرورية ولابد منها . بل هي شرور إذا لم تظهر بذاتها وجب
 علينا أن نعمل لإيجادها . فان كل شر منها يسبق دائماً إصلاحاً اجتماعياً
يعم جميع الجنس البشري . وإليك مثلاً أو أمثالاً . فلو لا ازدحام أوربا
لما عمرت أميركا . ولو لا طمع أرباب المعامل لما كان تضامن العمال .

وما ألطف قوله :

يطيب أفواههن الحديث يحمر الشفاة ويضيّع التغور
كما مر بالورد وإلا قحوا ن نسيم مشوب بريا العبير
ألا يرتشف من بيته هذين رضاب الحسان ، وتنسم ريح الورد
والأقحوان .

وما أغزر دموع هذين البيتين :

ويا ريح أما مررت الحياة ورويت منه الربوع الظماء
فسوق إلى جهان السحاب لأملأهن من الدموع ماء

وهل قال شلي في قصيدة القنبرة أحدث من هذا
أصبا هبت بريحان الصبا أو شمال سكرتني بالشمول
حيث غنتني شادي روضة مطربات بخفيف وثقيل
في أعاريض قصار خففت

دقة في الوزن عن فهم الخليل
ولحون حار فيها معبد وله علم بموسيقى الهديل
والدجى يرنو إلى أصباحه بعيون من نجوم الجوحول

وما أبلغ وأصدق ما قال :

واشراك الردى في الغيب تخفي
كما يخفين في ترب الخضيض
عجبت لجمعه فيهن صيداً حوى بين القشاعم والبعوض
وأين بيته صيرى أو شوقى في تنزيه صاحبتهما من هذا البيت :
لا تنكرى أنك حورية رواحة الجنة نمت عليك

ولا استبداد الرأسماليين لما وضعت مبادئ الاشتراكية التي ستغير أصول الشرائع والآداب في العالم قريباً. ولو لا جشع المرانى لما تأسست نقابات الزراع. وهكذا كل داء يحمل ترياقه في جرائمه. وكل سيئة طارئة يتبعها حسنة دائمة مما لا تكفله لنا الطبيعة ولا الطبيعيون.

أما ساداتنا الفلاسفة الذين يهشون على الجنس البشري كما يهش الراعى على غنميه ، صائحين : ارجعوا إلى الطبيعة ! عودوا إلى المروج والحقول ! فلا أعلم أهم يظنون العالم يعيش الآن فيما وراء الطبيعة ! أم لعل الطبيعة لا تأوى إلا بين الأشجار والظلام والأودية والجبال !

الغرام بالفلسفة القديمة

شاهدت بعض الأدباء ينهمكون في مطالعة كتب الفلسفة اليونانية . وينكبون على تطبيق قضایا علم المنطق . ويسهرون الليالي في مذاكرة الغاز علم الكلام وما هو لو أصابوا إلا علم الكلام الفارغ إن كان للكلام الفارغ علم يدرس . يتحملون كل هذا النصب في الاشتغال بتلك المغالطات والتخيّلات ولو بذلوا بعضه في تحصيل العلم الحديث لأوعبوا منه القسط الأوفر .

لا أنكر أن مراجعة الفلسفة القديمة مما لا بأس به للوقوف على حركة الأفكار . ولكن لا إلى الحد الذي يشغلنا عن فلسفتنا . كما أن زيارة الأطلال والآثار مطلوبة للنظر والاعتبار ولكن لا يصح أن تنسينا بيوننا .

البغاء :

سل الكتاب الفضلاء الذين يدهشون لانتشار البغاء بن الرجال
والنساء : ما الذي يدهش من الأمر ؟

أمن طبيعة الزوج أن يقتصر على امرأة واحدة أم طبيعة الزوجة
أن تقتصر على رجل واحد ؟
لا هذا ولا ذاك .

فالقيود الأدبية هي التي قسرت كلا من الزوجين على الاكتفاء
بالآخر . وكان البغاء يكثر أو يقل حسب اشتداد تلك القيود أو
ارتخائها تبعا لاعتداد الرجل بقوته البدنية أو قلة قيمتها عنده (راجع
حماية العرض صفحتي ١٨ ، ١٩) .

فإذا بحثنا عن علة لهذا البغاء فلا نبحث عنها في الرجل والمرأة
فانهما لم يتغيرا في طبيعتيهما عن ذى قبل . إنما نبحث فيما تغير من
تلك القيود والحدود . وها نحن نراها كلها فد تبدل دينية كانت
أو أدبية لأنها لا تلائم عصرنا . والذى علينا أن ننتظر حتى يهسيء
المجتمع نفسه كما يلائم هذه الحال أو يحدث لنا قيودا جديدة في موضع
تلك القيود المنحلة .

وإلا فاذا كنا لا نعلم إلا اشمئزاز النفوس منفرا من البغاء العقيم ،
فبأى حق نحظر فعله على من لاتشمئز نفسه منه ؟

جنائية الصناع على الصناعة :

لو كان لا يتوخى الصانع غير المقصود من صناعته لرأيت الصنائع
أبعد في طريق الكمال والاتقان مما تراها الآن .

تقول للمغنى : هذا صوت شجى . فيقول لك أى نعم ولكنه
على غير ألحان الغناء .

وتقول للخطاط : هذا خط حسن . فيقول لك حقاً ولكنه لا
ينطبق على قواعد الكتابة . وتسمع مثل ذلك من الكاتب والطبيب
والنجار والحداد .

فيادللك المغنى ويأهلا الخطاط ، ما طلب الناس منكما إلا صوتاً
مطرباً أو خطأً معجباً . فاطويا قواعدكما أو فالقياها في أليم مadam
الصوت يطرب . والخط يعجب بغير تلك القواعد .

الكاتب والشاعر :

الكاتب من تتشخص له في كتابته روح يتجلى فيها نهجه ومذهبة
وسياق أفكاره . وهذه الروح هي السمة التي تميز بين قلم وقلم .
فإذا كانت تتضاهى أنساق الأيدي . فانساق العقول لا تتضاهى إلا
إذا كان منحاماً فيها التقليد لا الابتكار . أما غير هذا الكاتب من
يستمدون ويخططون . فأولئك نساخ يستعيرون أساليب غيرهم لمعانى
غيرهم . فليس لهم من كتاباتهم إلا الإمضاء . أو هم توائم لا يعرفون
إلا بالأسماء .

وكتابات هذه الزمرة أقرب إلى مواضيع إنشاء التلاميذ منها إلى

ثار القرائح ومبكرات الأفكار . فالترجمة اليق ما يتسبب به هؤلاء إلى حرفة الكتابة . هذا إذا كانوا يجيدون لغة من اللغات وإنما ففى غير الكتابة من الحرف ما يغنىهم عن تلويث أصابعهم بالمداد .

أما الشاعر فاسمه بلغتنا يشير إلى تعريفة ولعل معجما من معاجم اللغات لا يتضمن إسماً للشاعر أدل على مسماه من اسمه في اللغة العربية .

قد عرفنا أن وزن الأعاريض غير قرض الشعر ، ولكن من هو الشاعر ؟

أهو المقصد الذى لا يعجز عن ترصيع قصائده بما يهرب ويخلب من الخواطر البراقة والمعانى الخطابية المتلأللة ؟

كلا ! هذا شاعر يذكرنى بصاحب ذوق مهرج يريد أن يزين غرفته بالرسوم فيرخص سجوفها وحوائطها بالإطارات والكافافات حتى لا يبرز منها قرن أو تظهر فيها زاوية . أو بذلك المصور الذى يصنع رسماً يبهى النقوش ويهيج الألوان ليهرب بها أبصار الناظرين . أو بتك القروية التى تخلى يديها فتدس عشرة أصابعها في أنابيب من مختلف الخواتم والفصوص .

فليس الشاعر من يزن التفاعيل ، ذلك ناظم أو غير ناثر . وليس الشاعر بصاحب الكلام الفخم واللطف الجزل . ذلك ليس بشاعر أكثر مما هو كاتب أو خطيب . وليس الشاعر من يأتى برأى المحازات وبعيد التصورات . ذلك رجل ثاقب الذهب حديد الخيال .

إنما الشاعر من يشعر ويُشعر

ولقد ضاع الشعر العربي بين قوم صرفوه في تجنیس الألفاظ وقوم صرفوه في تزویق المعانی ، فما كان شعرًا بالمعنى الحقيقي إلا في أيام المحاهلين والمحضرين على ضيق دائرة المعانی عندهم وسيعود كذلك في هذه الأيام على يد أفضل شعراء العصر .

قاسم أمين :

أن اسم قاسم لحقيقة من فتياتنا وآنساتنا بأن يرقمنه في الشنوف ويطرزنه على المناديل . فإن ذلك عنوان عرفان الجميل ، وأنه لأحيا أثراً من رفع النصب وإقامة التمايل .

تحرير المرأة ليس من الأعمال الطنانة التي أكثر ما فيها دوى ورنين . ولكنه عمل هادئ رصين ينزوی في البيوت والخدور . لا ييرز إلا قليلاً على قوارع الطرقات ولا يصرخ إلا نادراً على منابر المنتديات .

فالمرأة المصرية مدينة لقاسم لأنها كانت سجينه فأطلقها وكانت أمة فأعتقها . والأمة المصرية مدينة لقاسم لأنها كانت شلاء فأبرأها من ذاك الشلل الذي أمسك شقها عن الحركة دهوراً وأعواماً . والإنسانية مدينة لقاسم لأنه أنقذها من رق لا تجرأ مصلحة الرقيق على مطاردته . والفخر في تحرير المرأة لا يزال الآن من نصيب قاسم . أما من قفوه في هذا المقصد فهم إنما درجوا على طريق بينة الآثار وسلكوا في منهج مأمور .

الحقول العامة والاستعمار :

اباحة الحقوق العامة لكافة الأفراد في كافة الأوطان مرهونة على زوال الاستعمار .

ومتى يزول الإستعمار .

متى عولت الدول على جودة البضاعة لا على قوة الاساطيل . وأخذ كل أهل إقليم في استغلال أقليمهم واستخراج ذخائره فتسقط حجة المستعمررين الذين يقولون - وهم صادقون فيما يقولون - أن الاحق بالأرض هو الأقدر على الانتفاع بخيراتها والنفع بها .

يومئذ يبطل الإستعمار . ويومئذ ترشد الأمم من ضلال الوطنية فلا يطلب الوطن من الفرد إلا عضواً عاملاً ولا يطلب الفرد من الوطن إلا محلاً للعمل . يومئذ تتحد وجهة الإنسانية فتتكاشف وتتآزر بعد أن كان تتقاطع وتتدارب .

اللغة العربية :

قد لاتقل اللغة العربية عن أوسع اللغات في كثرة المفردات ولكنها لاتزال من أفقريهن في المعانى وقد لاتنقص مواد المعجم العربى عن بعض مئات من الألوف ولكنها مع ذلك تظل أفقراً من لغة أخرى لاتشتمل على أكثر من ثلاثين أو أربعين ألف مادة ذلك إن اللغة العربية ليست لغة واحدة وإنما هي مجموعة لغات شتى فربما كان للشىء الواحد عشرة أسماء تدعوه كل قبيلة باسم منها لا تدعوه به أخرى مما أكثر فيها الترادفات بلا جدوى فبینما نستغنى في معنى من المعانى

عن ستة أو سبعة أسماء تحتاج في معانٍ أخرى إلى اسم واحد . وقد شعر العربي بهذا الافتقار في المرتين اللتين اضطر فيها إلى الخروج من الدائرة الضيقة التي كان فيها بين المناخ والبيداء ومضارب الخيام . الأولى لما نقل الفلسفة اليونانية فدخل في اللغة العربية كثير من مصطلحات اليونان وحدثت فيها أوزان واستعارات لم تكن تمس الحاجة إلى استعمالها من قبل والثانية في عصرنا هذا عند انتشار العلم الحديث باكتشافاته واحتراكاته التي لم تكن تخطر لكان البدو أو الحضر على بال .

أقول ذلك توصلا إلى القول بوجوب توسيع اللغة العربية الفصحى بنحو جملة من كلمات اللغة الدارجة في بنيتها ونقل المصطلحات العلمية والفنية إليها كما هي في لغاتها الأصلية لغلا نجاشم الطالب العربي مراعاة اصطلاحين عوضاً عن اصطلاح واحد ولغلا تنفصل عن الحركة العلمية العامة فتنشق بين أمم العالم بعلم عربي لاقبل له بمساوية علم الأمم جماء .

فالعلم العصري علم الإنسان وليس علم العربي أو الانجليزى أن الفرنسيين فالاهتمام بتعريريه عبث واشتغال بما لا يفيد .

مستقبل الشعر

الشعر يخالف العلم ولكنه لا ينافقه الطب الهندسة وتناقض الكيمياء الطبيعة .

والرجل الرافق يفترق عن المنحط بكيفية التخييل لا بكميته فالأول

مرتب الخيال لطيفة والثاني مشوش الخيال كثيفة فالعالم لا ينقص خيالا
كلما ازداد علما .

فإذا تنبأ علماء العصر فليتنبأوا بتحسين الشعر وارتقاءه لا بحوله
وامحائه .

تعلمت كيف تصدع الأكباد
والنيل حولك دائم الازداد
وأقام جند الموت بالمرصاد
عما عراك وفت في الأعضاد
وغدوت نصب روائح وغواص
واقيم بعده هانها برقاد
وأيست بين وسائل ومهاد
ل لكنها تحرى بغير مسرادى

ياراحلا صدع الحمام شبابه
إني لاحسبنى أراك مجاهدا
وأراك ترمقنى وقد غالب الردى
في ساعة ما كان أغفل خاطرى
أمسيت رسمما في التراب معطلا
ويحيى! أترقد تحت أطباق الثرى
أتبيت رهن صفائح وجنادل
لو أنصفت أيامنا لبكيتني

بين الجوانح أظهر الأجساد
ضمات صدر أخيك بعد بعادر
واها لذاك الهاجع المتهاوى
فذوت وأورق شوكتها بفؤادى
سر الحياة - كثيرة الأضداد
فلقد عداك شقاوتها المتهاوى^(١)

سقىا لأظهر موجتين أقتلا
حتنا عليك وضمتكا كأنها
فمضيت بينهما كأنك هاجع
يا زهرة شرفت بما تحيا به
إن الحياة - ومحبتك لكي ترى
فلئن عدوت من الحياة نعيمها

(١) رثاء أخ لى مات غريقا وقد ضاعت أكثر أبيات القصيدة كما ضاع غيرها من الأبيات
والقصائد بين الذاكرة والأوراق .

عزاء الى ضيف الشارع :

يأمة ديدنها الخس
أوبائس توقيته الشمس
نجماً وذاك الخز والبرس

أيما أرفع في حكمكم
منعم توقظه غادة
غطاء هذا ريطه رصعت
الى ساكنة الدور الخامس :

تحفها هالة البهاء
أم ملك لاح في العلاء
للناس من شرفة السماء
البيك ياربسة النساء

ياطلعة في العلا تراءات
أكوب أنت في الدراري
أم أنت حورية أطلت
أن تحقرى الأرض فارفعينا

أيها البد

روفي الأفق أنت يابدر ساهر
ى من الناس موهنا كل ناظر
حائم في الظلام يابدر حائز

أنا في الأرضي ساهر أيها البد
ناظري وحده يراك وقد ألغى
فأعني على السهاد كلانا

الشدر

الراحة

أبونا أدم رجل سبط القامة ، عريض الألواح ، جثل الشعر ، في
لون بشرته أدمية ، وعلى محياه سيماء الطيبة والسلامة ، ولنظراته دلائل
الأمانة والجهامة . ولم أدركه أنا ولكنني صادفته في المنام ، وعرفني
به وحى الدم . والدم كما يقولون جذاب ، والعرق دساس . فلما
صادفته ذكرت موجدة طالما وجدتها عليه كلما راجعت سيرته في
الجنة . فقلت له يا أباانا يغفر الله لك : ما أقل ميراثك وأكثر وراثك !!
أقطعوك الجنة بما رحبت فلا صنتها عليك ولا حفظتها لبنيك بعدهك .
ثم خرجت منها فما تزودت من الطافها واطا يها ولا احتقبت من تحفها
وعجائبها ، عزاء لابنائك الضارسين بالحصرم الذى أكلت ،
والمغصين بالثمرة التى جنيت . وتركتهم في ظلمات الحياة يعمهون ،
وعلى وجه الأرضين والبحار يختبطون ، فلا يهتدون . فهلا إذ كنت
في الفردوس كان لك بطيانه المحللة ، غناء عن تلك الشجرة
المتنوعة !! وهلا إذا أكلت منها تذكرت بنيك فقطفت لهم من ثمار
الفردوس ما يتنسمون منه رائحة تلك الدار التى كنت فيها . ثم أورثتهم
الخين إليها !! وكان مطرقا . وكأنما هجت في نفسه ذكرى منسية ،

فاغر ورقت عيناه بالدموع ورأيته يغالب نشيجه ويتنهد ثم مد إلى يده
وقال : قدك يابنى قدك^(١) !!

ولاتتعجل باللوم على أبيك ، فو الله ما الزلة في الأولى والأخرة
إلا زلة أمكم حواء ساحها الله . وما نسيتكم علم الله يوم الخروج
يوم المعصية والحرمان . أواه . وما كان أحلى تلك المعصية ثم ما كان
أمر ذلك الحرمان... كنت أمشي في ذلك اليوم وأتلفت أسفًا على
ما أودع ووجلاً مما أنا قادم عليه . وكانت حواء تمشي إلى جانبى
ذاهلة مستعتبرة . والنساء يابنى يفعلن الأفاعيل وهن بعد لا يملكن فيها
غير الذهول والبكاء فيينا أنا أمشي واتعثر ، وأبطئ الخطوة أستزيد
بها الدقائق وقد كان لنا ثم مقام الأبد لولا مافرطنا ... إذ عابت على
قدى خطوات جوهراً وهاجا قد صفت حوله الطير وحفت به
الأملاك ، وهم ساهون عنه غير مقبلين عليه - ذلك جوهر الراحة
يابنى ومن آفته أن من يحرره لا يحس به ولا يقدر قيمته . فأوضعت
إليه فالقططته ولم يشعر بي أحد .

قلت: وأين ذلك الجوهر يا أبناه! أهو معك الأن ؟؟ قال: مهلا .
إني خشيت أن أظهر حواء عليه فترز أنابه كما قد زرأتنا بالتعيم كله .
فسترته بيدي وما كادت تمس الأرض قدمي حتى أسرعت فخيأته

(١) قدك أى حسبك .

(٢) أى مسافة .

فِي حَرَزْ حَرِيزْ . وَقُضِيَتْ وَآسْفَاهْ وَلَمْ أَطْلَعْ أَحَدًا مِنْ أَبْنَائِي عَلَى مَوْضِعِهِ . وَهَذَا سَرْلَا إِنْخَالَكُمْ وَفَقَمْ عَلَيْهِ . فَلَا غَرْ وَأَنْ قَامَ مِنْكُمْ فِي الزَّمْنِ الْأَخِيرِ مِنْ يَنْتَسِبُ إِلَى الْفَرْدَادِيَّةِ ، وَلَا بَدْعَ أَنْ تَيَأسُوا مِنِ الْجَنَّةِ وَتَوَلُوا بِوْجُوهِكُمْ عَنْهَا..!

قَلْتَ : بَلْ قَدْ وَقَدْ وَقَفُوا عَلَيْهِ . وَلَا أَدْرِي مِنْ أَنْ . وَدَرَوْا أَنْكَ التَّقْطَطَتْ جَوْهِرًا مِنِ الْجَنَّةِ وَأَنْهُ جَوْهِرُ الرَّاحَةِ . فَطَفَقُوا يَسْخَثُونَ عَنْهِ فِي الْيَقْظَةِ وَالْمَنَامِ وَكَلَّمَا ظَنَّوْا أَنَّهُمْ ثَقَفُوهُ^(١) أَذَاهُمْ أَبْعَدَ مَا كَانُوا عَنْهُ - إِذَا ابْتَغُوهُ فِي الْأَمْلِ لَمْ يَنْقُصْ لَهُمْ أَرْبَعْ حَتَّى يَجِدْ لَهُمْ أَرْبَعَ ، وَإِذَا أَرَاغُوهُ^(٢) فِي الْلَّهُو فَعَاقِبَتِهِ النَّدَمُ ، أَوْ نَشَدُوهُ فِي الْبَطَالَةِ فَفِي الْبَطَالَةِ السَّأَمُ ... تَائِهِينَ عَلَى غَيْرِ هَدِيٍّ ، ضَارِبِينَ فِي مَنَاكِبِ الْأَرْضِ سَدِيٍّ . يَبْدَأُونَ وَيَعِدُونَ ، وَيَعِدُونَ وَيَبْدَأُونَ ، وَهِيَهَا مَا يَوْعِدُونَ . أَفَلَا كَفِيَتْهُمُ الْأَنْ هَذَا النَّصْبُ ، وَعَوْضُتْهُمْ عَمَّا تَجْشَمُوهُ مِنْ سَالِفِ الْحَقْبِ؟؟ قَالَ : لَا تَطْمِعُوا أَنْ تَجْدُوهُ حَيْثُ أَنْتُمْ كَادِحُونَ ، فَإِنَّمَا قَدْ دَفَنْتُهُ تَحْتَ التَّرَابِ . فِي مَكَانٍ لَا يَرَاهُ مَنْ يَنْظَرُ السَّمَاءَ وَلَا يَرَا السَّمَاءَ مَنْ يَنْزَلُ إِلَيْهِ مِنْ إِلَيْهِ ... وَلَكُنْكُمْ مَتَى حَلَّتُمْ جَوْفَ الْأَرْضِ وَاطْرَحْتُمْ كُلَّ أَمْلٍ لَكُمْ فِي ظَهَرِهَا . فَهُنَا لَكُمُ الرَّاحَةُ السَّرْمَدِيَّةُ !

(١) وَجَدُوهُ (٢) أَرَاغُ الشَّيْءَ طَلْبَهُ

الغrror

دخلت على صديق لي أديب فسمعته يجادل رجلاً أمياً لم يغادر مسقط راسه قط . وكأنه كان يهمه أن يقنعه بضلاله ويؤنبه عليه فكان يخاطبه بلهجة بين الغضب والسخرية ويقول : أى شيء زين لك أنى تفه من هذه الشعون مالاً أفقه وأن لك فيها رأياً تعتمد به فترجحه على الأراء كافة ؟؟

أبان الله منحك من ذكاء القرىحة ونفاذ البصيرة ما قد حرمته وما دعى من قبل ولا أدعى لك أحد أنى من أرباب المواهب النادرة والأفكار الخارقة ؟؟

أم بسعة اطلاع وغزاره علم وقد علم الناس وعلمت أنت إننى تقلبت في مجالس التربية من لدن نطقتك بأولى كلماتي إلى أن استغنى عن المسح شارب^(١) وطالعت من الكتب أضعاف زنتك ورقاً وأنت لم تقرأ حرفاً في صحيفه ولا تفرق إلى اليوم بين الألف والعصا ؟؟

أم باختبار الناس ومارسة الأيام وانت في عقر دارك منذ ولدت

(١) قال أحد الأعراب في ولد له عقه :
وريته حتى إذا ما تركته
فهي الحرب واستغنى عن المسح شاربه
تغمد حقي ظالماً ولوى يدي لوى يده الله الذي هو غالب

لم تبرحها صباحاً إلا لتنكفيء إليها مساء ، وأنا قد سايرت الدهر
وساريت النجم فقاسيت الغربة وكابدت المخنة وصاحت عليه الناس
وغوغاءهم ، وبلوت كبراءهم وصغراءهم ، وزاولت كل عمل ،
وطرقت كل باب فانكشف لي من ظواهر الناس وبواطنهم مالو أنسى
لم أقرأ بعده كلمة لكان حسيبي ، وما لو أنه لم ينكشف لي لما كنت
قد قصرت عن شاؤوا انت أدركته ولاجهلت أمراً أنت حصلته ولم
تجهله ٩٩

أم بالسن وأنت ندي ، أم بالوحى والأهام وقد انقضى عهد
النبوة ، أم بالصدفة ولا حجة للصدفة ٩٩

قلت لعلى أجييك عما يزين له ذلك . يزينه له الغرور الذى تختليء ،
منه كل جانحة وتنبض به كل جارحة . ولو لاه مات أكثر الناس غماً
بقصورهم وحزناً وأسفاً على عجزهم وتخلفهم . وإذا كان لابد لكل
إنسان من أن يحب نفسه فلا بد له من أن يغبط بها وإلا فقد عجز
الأنسان حتى عن حب نفسه لغير سبب ، كما قدر الغرور على أن
يخلق لكل إنسان سبباً يرضيه عن نفسه وأنت لو أمكنك أن توقف
إنساناً ثم أمرت أمامه الثقلين جمياً يقولون له أنه أجهل الناس وأحقر
الناس وشر الناس وأضعف الناس ، ثم خلا ذلك الإنسان بنفسه
لأنه أعلم الناس وأجل الناس وخير الناس وأقوى الناس .
بكذب الناس كلهم ويصدق الغرور يقدر على أن يعوضوه عما يسلبه
منه الغرور . فان كان فقيراً علل نفسه بأنه سليم الجسد موافر العرض
أو بأنه لو أحصيت ديون الغنى وأمواله لكان هو أثري منه مع الراحة

من عنت الغرماء ، أو أن يدبر ماله القليل بما يجعله أغنى من صاحب المال الكثير ، أو أن الله أخلف له في ذريته ماأنقص من رزقه ، وأنه يكسب قوته بعرق جبينه وكد يمينه ، وذاك يكسبه من السحت والحرام ، ويبيده في البذخ والأثام .

وإن كان جاهلا زعم أنه ليس بالغبي ، ولو كان تعلم ما تعلمه العلماء لبزهم في العقل ، وتقديمهم في الفضل ، وأنه على جهله يفهم بالبداهة مالا يفهمه العلماء إلا بالدرس واللجاجة

وإن كان مهيناً ذليلاً قال مالى وللرفة والثناء ، والعزة القعساء ، أضيم الأبراء واعتوا على الضعفاء ، وأروى بهم الحقد والبغضاء ، وما يتبعهما من سوء الثناء ، وأنصب^(١) لما ليس يعنيني من الأشياء ، وأخدم المرؤوسين وأنا أحسبني من الرؤساء ألسنت أنا في هذه الدعوة والرخاء ، أولى بالغبطة والخلياء ، وأعز في ذاتي وضرعى من الأعزاء ٩٩

وإن كان ناشئاً حدثاً والمنافسوه من الكهول والشيوخ قال أجل ولكنى أعلق في اليوم مالا يعلقونه في الشهر وأفيد في الشباب مالا يفيدون في الهرم وأعى وأنا في الدار مالا يعيه غيرى بغير الرحلات والأسفار ، والتجوال في شواسع الأقطار .

وإن كان ذمياً اتهم المرأة ، أو مجرماً سب القضاة ، أو منافقاً قال هذا عين الحكمة والدهاء ، ولب الفطنة والذكاء .

(١) أتعب .

وهكذا يعين الغرور كل امرىء على أن لا يسلم من هو أعلى منه بالسبق والأفضلية . ويدخل عليه أن ماعنده خير مما عند غيره . ومن حسن حظ المغورين أن النعم والنعم والمناقب والثواب توائم تتشابه في السمات ، وتبادر في الصفات ، ولكل نعمة توأم من النعمة ، ولكل فضيلة صنو من الرذيلة . فالسعادة أخت البلادة والدعة أخت التوانى والأرادة أخت العناد والزمانة أخت الحياة والأنفة أخت العجرفة والقحة أخت الجرأة والاحتيال أخو الذكاء والجود أخو السرف والبخل أخو القصد والمجد أخو الجبروت والحلم أخو الجبن والفضاحة أخت الترثة والكآبة أخت الوقار والحدة أخت الضجر وهلم جرا . فيسهل على المغور أن يمسخ كل فضيلة رذيلة ، ويتمثل كل نعمة في زى النعمة . ويكون هو أسعد الناس بمحابيه ونقمه ، ويكون غيره أشقي الناس بمناقبه ونعمه .

وما يحكى ويناسب مانحن بصاده أن عجوزا شوهاء قرعاء عوساء عوراء بخراء وقفت أمام المرأة مرة وجعلت تقول :

عجوزا ! نعم ولكننى شبت على صلاح... شوهاء ! بلى ولكننى لم أتحال ولم أزور على الناس بالطلاء كا يصنع سمجات النساء ...
قرعاء ! أجل ولكننى لم أدنس رأسي بوساد المخنا والفجور .
عوراء ! أى ولكننى لم أنظر لريبة قط ... بخراء ! صدقوا ولكننى طهرت فمى أن الوثه برايحة الهجر والمهاترة وتنن السفه والمسامة فوفرت بعلى وأمن جلسائى من لسانى... قالوا وكان إبليس واقفا يسمعها فقال يا فاجرة ! لقد عرضتكم على الزناة والفسقة في مشارق

الأرض و مغاربها فكلهم عافوكم و صدوا عنك ، وأقسم لو كان فيك
مطعم لغير القبر لما أتيت أن تضمنى إلى عيوبك التي فيك هذه الخازى
التي تعييرينها^(١) النساء ، وتدلن عليهن بالطهارة منها .

والى هنا لانعد الغرور شرّاً محضاً . فكم أرضى ساخطاً وكم خفلاً
من جأش محروب وكم طلبة ذات عيوبها أنفس الناس حسرات .
فأعطاهن منها في الوهم مالم ينالوه ولمن ينالوه في الحقيقة .
والغرور قد يقعد الماء عن طلاب الكمالات بما يخيل إليه من حصوها
عنه واستحواذه عليها ولكنه طالما استفز نفوس الطامحين إلى العلي
بزموا بما أكبر من إخطارهم^(٢) في أنظارهم فالتزموا حقوق المنزلة
التي فرضوها لأنفسهم ثم أفضى الأمر إلى أن تبواها فاستحقوها
بالتطبع بها والمواظبة عليها . فهو خير وشر ، وحق وبهتان . وما أخطأ
كارليل حين قال «هو حاسة سادسة لاتشبع» وكما أنتا لانصلم الأذن
إذا سمعتنا مانحباً ومانكره ، ولا نفقاً العين إذا أرتنا مايسراً ومايسوء
ولانجدع الأنف إذا أنشقنا ماينعش وما يؤذى ، ولا نقطع اللسان إذا
أذاقنا مايحلو ومايكر ، كذلك لانستأصل الغرور إذا كان فيه مع
الصدق الأجل كذب راهن ، وكان الكنز لديه لا يخلو من المارد .

(١) عيرة كذ وعيرة به سواه .

(٢) الأخطار هي الأقدار .

نادى العجول^(١)

نبشت أن العجول اجتمعت مرة لتنشىء لها نادياً تأوى إليه ، ولا تعلم ماذا ساقها إلى هذا المخاطر الغريب : أقلة العلف ، أم ضيق المذاود ، أم ذاك مرض النوادى الذى سرى النبهاء إلى الأغمار ، قد فشا حتى سرى من الأناسى إلى الأبقار ؟؟ هذا سر في صدور العجول .

فلما تكامل عددها ، وانتظم عقدها ، وقف منها عجل يظهر من كبر دماغه أنه ملم بالتاريخ والأخبار وقال : «أيها السادة !! إن العجل مدنى بالطبع . ونحن معشر العجول قد ميزنا الله على بني أدم بضخامة الأجسام وصلابة القرون . ولقد عبر بهؤلاء الناس زمان كانوا يعرفون لنا بأنسنا ويتمسحون بأذيانا حتى أيقنوا أن لن يقوى على حمل هذه الدنيا أحد سوانا ، فألهونا من فرط الأجلال ، وسمحوا لنا بالغدو والآصال ، وكانوا يحسدوننا على قروننا فدعوا أكبر أبطالهم وأشدتهم بائساً وأرفعهم ذكراً أعني الأسكندر المقدونى بذى القرنين . وما أسكندرهم هذا وما قرناه ؟؟ ألمَا تنتبه لما ما يحب عليك لبني جنسك ، وما هو فرض معين عليك لنفسك

قال محدثي : ولما بلغ الخطيب إلى قوله هذا بأن الحماس على أوجه العجول قاطبة فهزت رؤوسها استحساناً ، وفحصت الأرض

(١) كتبت هذا المقالة في نادى اتفق أن أكثر اعضائه كانوا من ضياع الأبدان وقد تأسس النادى لأسباب تجعل لذكر القرون في المقالة مناسبة ظاهرة !!

باظلافها طربا ، وضررت جنوبها بأذنابها مرحبا . وخشى عاقبة هذا الحماس عجل هرم فقام وقال : الآن قد عرفنا ما يوجب علينا إنشاء هذا النادى ، وسمعنا ، فخذلوا بنا في انتخاب الزعيم ، ومن رأى أن لا يزيد وزنه عن عشرة قناطير ليكون خفيف الحركة في أعمال النادى

وكان يتكلم ويتمهل ليلاحس شفتيه ويختبر مضغ العلف التي ترد إلى فكيه فلم يمهله الخطيب الأول بعد جملته الأخيرة فوثب كالمنخوس وصاح وهو يرتعد من الغضب « لا ! لا ! لا ! وكلا وألف مرة كلا ومعاذ النعمة الجنسية أن نرضى بهذا الاقتراح . أفتقبل علينا زعيم لا يزيد وزنه عن عشرة قناطير ؟؟ فماذا أبقينا إذن لهؤلاء الأدميين العجاف الضبال ؟؟ هذا وربى ما يزرى بشرف العجول ويحط أسعارنا في الأسواق حطة لاقائمة لنا بعدها يدالدهر »

قال محدثي : فماج النادى واضطراـب ثم كثر الزئاط واللجب وـكـاد ينـفـضـ الجـمـعـ بلاـطـائـلـ . لو لاـ أـنـ تـلـافـيـ الـأـمـرـ ذـلـكـ العـلـ الـهـرـ فـوـقـ مـتـبـسـماـ وـقـالـ :

« يـالـخـواـنـيـ : مـأـرـدـتـ أـنـ أـغـضـ مـنـ شـرـفـكـمـ بـماـ اـقـرـتـتـ عـلـيـكـمـ ، وـلـكـنـ مـعـنـاـ هـنـاـ أـبـقـارـأـ حـلـبـ الـدـهـرـ أـشـطـرـهـ ، وـأـكـلـ نـيـرـ السـوـاـقـ فـرـائـصـهـاـ . فـهـىـ مـازـالـتـ تـرـىـ أـنـ السـمـانـ الـفـوـارـهـ مـنـاـ عـرـضـةـ لـظـلـمـ بـنـىـ آـدـمـ ، وـأـنـ خـيـرـ لـلـنـادـىـ أـنـ يـكـوـنـ زـعـيمـ مـعـتـدـلـ الضـخـامـةـ لـاـبـلـجـسـيمـ الـهـائـلـ وـلـاـبـلـنـحـيفـ النـاحـلـ . فـاـنـ كـانـ ذـلـكـ لـاـيـرـضـيـكـمـ ، فـشـائـنـكـمـ .

وماتريدون ، ودونكم وماترتضون فأنا لكم أية الأخوان لموافقون »
هذا وبرك فهذا الأضطراب وجالت رقاع الانتخاب

جالت الرقاع فانتخبت العجول زعيمها شبيع الوجه ، متفرج البطن ، منحوس الطلعة ، نكير الصوت ، ثم اختارت الرئيس فالوكييل فالناموس فالمفترش فالآمين - خمسة عجول تتفاوت في الجسامه حسب تفاوتها في الدرجة ، فاصطفت صفا ، ثم أقلبت وأدبرت ، ثم دارت في الندى تدبب بأرجلها ، وتشول بأذيالها وتنفع التراب بمناخرها ، ثم خورت خواراج الفضاء ، وطبق الأرجاء ، وأصبح في الدنيا منذ ذلك اليوم ناد للعجول ...

علم الاحترام

نعم علم الاحترام . ولماذا لا يكون الاحترام علمًا ؟؟ ألا يشتمل كما تشتمل العلوم كلها على مبادئ وأصول ، وحقائق وفرض ؟؟ والعلوم على تعددها تبحث في مقادير المواد والأشياء وفي نسب بعضها إلى بعض ، فان تجاوزتها إلى الناس لم ترق إلى الموازنة بينهم ، ووضع قيمة صحيحة لكل منهم ، أما علم الاحترام الذي تريد أن نبتكره فيبحث في أقدار الناس وما يتفضلون به من عروض الحياة ومحاسن الشيم . فهو أشرف العلوم موضوعا ، وهو أخر ما يتلقاه الطالب يتلق العلوم الأخرى في الكتب ويحضرها على الأستاذة ، وهذا العلم لاكتاب له يحضر أبوابه وأقسامه ، ويضبط قواعده وإحكامه ، ولا أستاذ يملئه عليه طالبه فيريحه من جمع متفرقة ، إذ هو مفرق بين

أيدى الناس الرفيع منهم والوضيع ، والمحنكين منهم والأغارار ، ففى كل يد عجالة مبتورة ، ومع كل خريح وصبة ناقصة . وإنما على الطالب أن يتبع أجزاءه فى مظانه ، ويستعين عليه بأهله . فانه إن لم يفعل لم يكن قصاراه أن يجعل ما يحترم به الناس ، بل جهل الناس ما يحترمون به .

ولم أقصد بعلم الأحترام هذا الذى يصنعه بعضهم إذ تراه يتهدب ويوجل وهو داخل على من يحترمه كأنه يقتسم غابات أفريقية ، أو ينتفض ويشد عرى قبائه كأنه يقابل ثلوج المنطقة القطبية ، أو يهبط بيديه ثم يرفعهما كأنه يحشو التراب على رأسه ، أو يرخيهما على صدره كالكلب يعالج الوقوف على رجليه . فهذا علم شائع قد حفظه كثير من الناس وأتقنوا . وليس بين الرجل وبين أن يحترم نفسه فتقاد له مبادئه وخواتيمه فى أقل قولك ألف باع .

ولكن قصدت العلم الذى من عرفه فقد عرف الإنسان ومن جهله فقد جهل كل شيء والذى لا يعلمه إلا القليل ولا يعمل به إلا الأقل من ذلك القليل .

رأيت رجلاً ذا قدم في هندسة البناء راسخة ، وشهرة فيسائر فنون الرياضة ذاتعة . وكنت أسمع أخاه يقول لو كان أخي في أيام خوفو لما بني الهرم الأكبير أحد سواه ، ولو حضر بابل يوم اندك صرحها لmad كه الله ، ولكن رأيته يطأطئ على يد صعلوك يسيل مخاطه على سباله ، ويجرى لعابه على لحيته فيقبلها ظهراً لبطن ثم بطننا لظهر . فقلت هذا رجل يشيد الهيا كل إلا أنه يعبد الأصنام ، ويرى نسب

الأعداد والأرقام ، ومقاييس الأجسام والأحكام ، ولكنه لا يعرف الطول من العرض ، الخلف من القدام ، في علم الاحترام .

هذا نصيب مهندس كبير من هذا العلم فما ظنك بالجهلة وماذا يبلغ أن يكون جهد السوق السفلة ؟؟

تقول لك آداب السلوك آحترم من ينفعك ، وتقول لك آداب الصدق احترم من ينفع الناس . والقصد بين المذهبين أن أن تحترم من لا يسعك احتراره سواء في سرك أو في علانيتك . أما الناس فيحترمون من يخافون شره أكثر من احترامهم من يطلبون بره . وربما شاب احترامهم لأهل البر بعض الرياء وأما احترامهم للظلمة والطغاة فخالص لاشائبة للرياء فيه ، بل هو احترام لو أكرهوا أنفسهم على تركه لما استطاعوا .

ويارب فتى مبتدئ في هذا العلم يخرج من كتف أبيه أو أستاذه ويمضي على رأسه حائراً لا يعلم من يحترم ولا كيف يحترمه ولا يعلم من يحترق . ولا كيف يحترقه . وتراء يغالي باحترامه ويضن به على من لم يكن أمة في رجل ، وعالماً مجتمعاً في واحد ويمسك بميزانه وقد وضع في إحدى كفتيه صنجة النبوغ وضنجة الأخلاق وضنجة السمت^(١) وصنجة الرأسة وصنجة الثروة وغيرها من الصننج التي يوزن بها الرجال ، ويدهب بالكتفة الأخرى على يجد الناس من يملأها ويشغل فيها . فما هي إلا دورة أو دورتان في الطرق والبيوت والأسواق والمحافل حتى يرثي ورثي وقد رفع كفته أكثر الصننج . يرثي

(١) السمت الوقار وجمال المبيبة .

واحدة بعد واحدة ولا يدع في الكفة إلا صنجة أو اثنتين . وهم في الغالب صنجة الرهبة وصنجة الطمع . ثم لا يرضى غير يسير حتى يصبح وهو لا يرجع في ميزانه إلا أخف الناس وزنا عنده ، وحتى يكون بين ظاهره وباطنه في الاحترام أبعد مما بين الأرض والسماء .

ولقد هالني هذا الأمر وخفت منه على آداب المبتدئين فعن لي أن أدعو لجنة من العلماء إلى وضع كتاب واف صريح في علم الاحترام يعصم الناس من الخلط والخبط فيه ويحجزهم عما يتخذه من الدهان والملق ... فاستقر رأيي على هذه الفكرة أيام . ولكنني رجعت إلى نفسي فقلت ومن ياترى يشرح للناس مسائل هذا الكتاب ؟ وأى أستاذ يرضى بأن يعلم الناس علما يحتقرونه به ؟ ألا يكون شأن الأستاذة في هذا الكتاب كشأن الفقيه المنافق في كتب الدين ؟ يلقن الناس منها ما يدر عليه الرزق ، ويوطئه له الأعناق ، ويعمى عنه العيون ، ويتركهم من الدين القويم في جهل مقيم ، وعن اليقين ، في ضلال مبين ؟

فيئست من أن يكون للناس قسطاس صادق المعيار ، أمين على الأقدار . ورأيت أن أفضل ما يصنع العلماء أن يستغلوا بعلومهم التي انقطعوا لها وأن يدعوا كلا وما يهتم به في علم الاحترام .

جمجمة الانسان

أذكر فيما قرأت من حكايات الفرس حكاية يروونها عن النبي عليه السلام . زعموا أنه أصحر^(١) ذات يوم قائظ ومعه الصحابة فنزل في ظل شجرة باسقة وإلى جانبها غدير ماء مصطفق رقراق يشوقك النظر إليه إلى الشرب منه . فلما اشتد أوار الظهيرة عطش النبي فقام إلى الغدير فتناول منه بجمع كفيه وشرب فوجد أبرد ماء وأعذبه ، وأصفى ورد وأطييه ، ثم عطش مرة ثانية فعاد إليه فترشف منه رشفات روطه من غلة العطش ولم تروه من عذوبة الماء وحلوته . وذهب في المرة الثالثة فوجد على الشاطئ إماء فأخذه وملأه من الغدير واجترع منه جرعة فإذا تلك العذوبة ملح زعاق ، وإذا صفائءه الصالح البشوش قدر لا يطاق ، فمج الماء من فمه ونظر في الأناء فألفاه نظيفاً ولم يتبين فيه ماعساه أن يكون منشأ هذه الملوحة والقدارة . فرفع بصره إلى السماء متعجباً وكأنه يسأل الله عن سر هذه المعجزة وماذا أراد جلت قدرته بهذه العبرة ، ويقول كيف ينقلب الماء في لحظة من طعم إلى طعم والغدير واحد . فما ارتد طرفه حتى أنطق الله الأناء في يده فقال لاتعجب يابن الله فإن في التراب الذي صنعت منه فرة من جمجمة أنسان ، فهذه الذرة هي سبب هذا التغير ، ولو عللت يابن الله من الماء براحتك كا نهلت^(٢) لما أنكرت من طعمه ما أنكرت .

(١) خرج إلى الصحراء .

(٢) نهل شرب للمرة الأولى وعلل شرب للمرة الثانية أو الثالثة .

ما أراد واضح هذه القصة أن يقول أن في جمجمة الإنسان مراة كمراة الحنظل ترشح الحنظل فيما يخالطه من الأشياء ، ولكنه يقول فيما ورى به أن في رؤوس الناس سما حاضرًا يرد الطيب خبيثًا ، ويحيل السائع المريء كريها مسقما ، وأن هذا الجانب المسموم من رؤوسهم يضيع عليهم كل ما يدأبون له ويضبون عليه^(١) ببقية جوانب رؤوسهم التي بها يعملون على رفاهة العيش ، ويرغبون في هناء البال .

إن هذا السم الذي في رأس الإنسان يضنى صاحبه قبل أن يضنى البعيدين عنه ، وكلما كان الرأس قريبا إليه وكثير الاشتغال به كان سمه افتك وأسرع فعلا . وهذا هو المشاهد الحق . فأول من يلدغ الإنسان نفسه ثم عترته الأدنون ، ثم خلصاؤه المقربون ثم أهل وطنه المعاشرون ، ثم الأعداء الحاقدون ، ثم من لا يعرفهم ولا يعرفون من الناس : أبعدهم عنه أسلفهم ، وألزمهم له أظلمهم ولو تسنى لامرء أن لا يعيش إلا مع من لا يكترث لهم ولا وصلة بينه وبينهم ، لما عز على أحد أن يبدل أقصى الناس عنه بأقصهم به . ولقد جعل السم في ناب الأفعى وقاية لها فصار هو مدعاه هلا كها ، حتى أن ما يقتل منها لأجله أضعاف ما ينجو بسببه ، وهكذا صار السم الآدمي مقتلا وسلاما لصاحب ، وداء ودواء له .

أنا لا أصدق إلا أن الإنسان أقدر على أشقاء نفسه وغيره منه على إسعاد نفسه وغيره . فلماذا هذا؟ لأن السعادة ليست ضرورية

(١) يضب على الشيء بمعنى يشتت حرصه عليه .

للإنسان كالشقاء !! نعم نحن أرغب في السعادة ونحن أطلب لها . وينخيل إلينا أننا لأنحينا بغيرها . ولكن لماذا لم نعط من وسائل السعادة ما أعطيناه من وسائل الشفاء ، وما معنى هذه الرغبة يا صاح !! هل تأتلف الرغبة وال الحاجة دائماً ، أم هل ترتبط الكراهة بالاستغناء في كل حين !! اللهم لا .

فيما أهيا الظاميء الجاد وراء السراب : إن كان ظمئوك إلى السعادة وليس إلى شيء آخر فلا ترج أن تشربها في جمجمة إنسان ولا سيما الجديدة التي لم تتعق والمقلة التي لم تكسر .. وإنك قد يخلو لك سلسبيل الحياة إذا تجرعت منه بكفيك ، ولكنك حيثما عمدت إلى إماء غير يدك ، أو أداة خارجة عن جسدك ، فهنا لك لابد من ذرة من جمجمة إنسان ..

الصدى ونرجس

الصدى في أسطoir القديمة جنية من بنات الغاب والأودية ونرجس فتى سليل الهين من آلهة الماء . وكانت الصدى ذات منطق فصيبح وحديث خلاب يستهوى السامع فينسى نفسه ، ويلهيه عن شأنه ، فمررت بها (هيرا) حلية (زوس) رب الأرباب فاستوقفتها بالحديث وعاقتها عما قدمت له . وكانت هيرا قادمة لتباغت (زوس) مع خليلها وحده في مخدعها . وعلمت هيرا أنه لو لا الصدى لما أفلت أولئك الضرائر منها فغضبت عليها وسلبتها قوة الحديث إلا أن تردد ماتسمعه ولا تزيد عليه .

أحبت الصدى نرجس فلم يفل بها ، وامتنع عليها أن تبته هيا مها فذاب لحمها ، وبلي عظمها ، ولم يبق منها إلا نفس مصعد وصوت مردد . أما نرجس فقد نقمت عليه (نسيس) بنت الليل والربة المنتصبة للظلم من الظالم . نقمت عليه جفاءه وتيهه فأمهلتة إلى أن أقبل على بعض العيون ووقف يعجب بما أبداه الماء من جماله فمسخته زهرة في مكانه ، فهو لا يرمح واقفا على حافات العيون والجداول ناكس الطرف يطل على خياله في الماء .

بهذا التثيل الشعري كان القدماء يفسرون عجائب الطبيعة ويشاركونها الأحساس فيتهجون ويخالون أنها تضحك لهم ، ويحزنون ويخسرون أنها تبكي معهم . ويصاحبونها مصاحبة الأحياء للأحياء ، فكانت الطبيعة حياة كلها وليس في زاوية من أخفي زواياها موضع للجمود .

وقد كانت هذه الأساطير مادة غزيرة للشعراء فأولعوا بالنظم فيها ، وعنى أحدهم بنظم قصص المبدولين والمتقمصين فسبّكها أحسن سبك .. وهو (بليوس أفياداس ناسو) شاعر لاتيني ولد قبل الميلاد ونفاه القيصر أوغسطس من روما لافتتان الشعب الروماني بغازله . كما نفى عمر بن عبد العزيز الفرزدق من المدينة لتهنّكه ، وكما نهى المهدي بشارا عن النسيب في أبان المدينة العباسية . وإليك مانظمته في حكاية الصدى . قال :

«راحت الصدى تقو أقدام نرجس ولا يراها . وكلما لحقته تعاظمت برحاؤها ، وتحرقت أحشاوها ، كهوء المشاعل يتبعها ولا

تدركه الأ بصار ، ويقاد يضطرم وإن لم تمسه نار . وطالما همت بأن تفاتها بتحية أو تستعطفه بكلمة . فكان يخونها الحياة ويستعصى عليها النداء .

«وَضَلَّ نَرْجِسُ عَنْ رَفَاقِهِ يَوْمًا فَجَعَلَ يَصِحُّ أَلِيسْ هَنَا أَحَدٌ؟ قَالَ الصَّدِّيُّ ... هَنَا أَحَدٌ ... وَسَكَتَ .

«فَبَهَتْ نَرْجِسُ وَتَلْفَتْ حَوْلَهُ لِيَرَى مَصْدِرَ الصَّوْتِ ، وَنَادَى هَلْمَ إِلَى أَفْسَعِ الصَّدِّيِّ تَجْبِيهِ : هَلْمَ إِلَى ...

«وَقَالَ نَرْجِسُ دَعْيَنَا نَلْتَقُ ! فَسَرَّ عَانِ مَاسِعَ رَجْعٍ كَلَامَهُ بِصَوْتٍ مَدِ فِيهِ الْخَنَانُ ، وَتَرَنَّمَتْ بِهِ الشَّعَابُ وَالْغَيْرَانُ . وَوَثَبَتَ إِلَيْهِ تَضْمِنَهُ وَتَعَانِقَهُ فَأَجْفَلَ مِنْهَا وَمَضِيَّ وَهُوَ يَقُولُ : أَعْزَىٰ عَنِي ! لَا كُنْتُ وَلَا كَانَ قَلْبِي إِنْ جَرَى يَبْنَنَا الْحُبُّ ...

«ثُمَّ مَا زَالَتْ يَنْخُرُ فِي قَلْبِهَا الدَّاءُ الدَّفِينُ ، وَيَأْكُلُ مِنْهَا الْكَمْدَ وَالْأَنْيَنَ ، حَتَّىٰ عَادَتْ أَرْقَ مِنَ الْهَوَاءِ . وَيَرَاهَا النَّحْوُلُ إِلَّا خَفْقَةَ نَدَاءٍ ، لَا تَلْبِثُ أَنْ يَعْبَثَ بِهَا الْفَضَّاءَ» .

اللَّوْمُ الْمَكْتَسَبُ

اللَّوْمُ ضَرْبَانٌ : لَوْمٌ مُورُوثٌ وَلَوْمٌ مَكْتَسَبٌ . فَأَمَّا اللَّوْمُ الْمُورُوثُ فَذَلِكَ الَّذِي لَا حِيلَةٌ لِصَاحِبِهِ فِيهِ وَلَا حِيلَةٌ لِخَلْوَقٍ فِي صَاحِبِهِ ، وَقَدْ يَتَمَنَّى اللَّثِيمُ التَّطَهُّرَ مِنْ وَصْمَتِهِ وَالْبَرَاءَةَ مِنْ شَبَهَتِهِ ، وَهَيَّهَاتُ ذَلِكَ .

وَأَمَّا اللَّوْمُ الْمَكْتَسَبُ فَلَوْمٌ يُضْطَرُّ إِلَيْهِ بَعْضُ الْأَشْقِيَاءِ لِضُطْرَارِهِ . لَوْمٌ رَجُلٌ سَالِمٌ النَّاسُ فَحَارِبُوهُ ، وَحَارِبُهُمْ فَوَارِبُوهُ ، وَبَسْطَ إِلَيْهِمْ رَاحَةً

الأمان فضريوه عليها ، وصرح لهم عن سويدة قلبه فوخزوه فيه ، فتعلم من الناس أن يقف منهم موقف المحارب الحذر . يراوغهم في أمره ويكتم عنهم مواطن قوته ، ثم يفتش عن مواطن ضعفهم ويتجسس على المغامز في صفوفهم . أفهموه أن ماهم فيه حرب لاسلم ، ومحاتلة لا بمحاملة ، وغض لانصيحة . فعمد إلى نفسه أولًا فاخفاها وراء سور من الرياء كما يخفى المقاتل نفسه وعدته وراء سور حصنه ثم عمد إلى مقاتلته فدبر كيف يصرعهم ، ومن أين يبتدرهم . إذا ابتسم له مبتسم تفقد قلبه هل فيه مطعن مكشوف أو ثلمة مطروقة ؟ وتعهد جوارحه لثلا تضطرب عند المحالدة أو تؤخذ على غرة ، ويعود فيرد تلك الابتسامة بمثلها ويجزى على ابتسام بابتسام . وإذا بكى بين يديه باك أسرع إلى قلبه فأضفى عليه الدرع واجتهد أن تكون أصيق دروعه وأمنتها لثلا يكون ذلك البكاء خدعة من خداع الحرب . فإذا ثبتت من قلبه وتهياً لمقابلة العدوان بمثله رجع إلى ذلك الباكى فاما بطش به أو كان أكثر من لؤما فيصافحه ولكن بعد أن يجرده من كل سلاحه وبعد أن يقلم أظفاره وينزع شكته ويتركه ولو شاء أن يخدش نفسه فضلاً عن أن يخدشه لما استطاع . فهو بعد ذلك أسيره الذي يطيع اشاراته ويسخره في قضاء حاجاته لاصنعيته الذي يحسن إليه ويرفع ينه . وقديمًا سمي الناس المحسن آسراً والمحسن إليه أسيراً ، وهم في التسمية ماتعدوا الحقيقة قيد ائلة إلى المجاز .

واللؤم المكتسب هو لؤم من صدق الناس فيكتذبواه ووف لهم فخونوه ، وعمل لخيرهم فأضروه ، واحب أن يعاد لهم النفع فلم

يقنعوا بما دون استئزافه وامتصاصه ولم يرضخوا له إلا عن أيسر مالديهم وأهونه عليهم . ويرضخوا له عن هذا اليسير الهين وهم قادرون على جحده والمماطلة فيه . ورَاهِم يصدقون من يكذبهم ويأتمنون من يخونهم ويخدعون من يؤذبهم ولا يشترطون عليه في نظير هذا التجاوز العظيم في هذه الصفقة الريحة ، إلا أن يكون خداعاً ماكراً ودساساً لشيماً . فلم أن هاته السوق أربع من تلك وأسهل في الممارسة . ورأى أن الناس كما يزدرون الرذيلة التي لا يحميها أحد . كذلك يزدرون الفضيلة التي لا يحميها أحد . فعلم إنهم ماأحبوا الفضيلة ولا كرهوا الرذيلة ولكنهم يخافون كلاً منها حين يكون خيفاً ويزدرونها حين يكون عزلاً ليس عنده ما يخافون . ووُجِدَ الفضيلة أوعر مسلكاً لأنها غريبة والرذيلة مهده الطريق لأنها كثيرة الأمثال والأشباه فتنكب الأوعر إلى الأسهل وألقى بدلوه في الدلاء .

رأى مارأى وعلم ما عالم ثم وقف وقفه يحاسب نفسه فـأيقن أنه لن يصلح الناس وأنه بين أن يعتزّ لهم إذا قدر فيكون دينه له ودينهم لهم . أو يصحّبهم فيعاملهم بالسكة^(١) التي يقبلونها مادامت كل سكة غيرها زائفة في نظرهم . وما دام الخيرون في هذه الأرض كالجبن لا يظهرون لكل انسان .

وأن للؤماء عادة أن لا يوحون بأسباب لؤمهم ولا يحاولون التوصل مما يرمون به لأن الناس لا يصدقون ولا فائدة لهم من تصديقهم إياهم ، فلذلك يتهمهم الناس بالحق وبالباطل ويقبلون فيهم كل ما يقال عنهم .

(١) السكة هي القود .

ومتى رأى الناس رجلاً يسىء الاعتقاد بهم جمِيعاً لم يسمعوا له قوله
فواحد منهم وقالوا ذاك ديدنه في التبرم وتلك شنشنة له في التجنى ،
فيصدقون شكوى الشاكين منه ولا يصدقون شكواه في أحد .
ويأبون أن ينصفوه وإن كان مغبوناً ف يتسع بينه وبينهم مجال التهم
وتقطع بينهم قلة الأنصاف :

ولم تزل قلة الأنصاف قاطعة
بين الرجال وإن كانوا ذوى رحم

وما كان ليثتم لثيما إلا بعد يأس من إنصاف الناس ويقين من
عسفهم في القضاء واغترارهم بظواهر الأحوال .

ولقد سمعت يوماً جماعة يتناشون عرض رجل لم أعلم عليه من
سوء فووصموه ب نهاية اللؤم ورجموه بأشنع الخبث . وكان أطواعهم لساناً
وأفحشهم طعنافى كان يدعى أنه ساعده فخذله ، وأحسن إليه فقابل
إحسانه بالأسوء . فلقيت ذلك الرجل فسألته فقال نعم . أعطاني
قطعة من السم صغيرة في قطعة من الحلوى كبيرة ، وهو يطالبني
الآن بشمن تلك الحلوى وين على إن وهبني السم بلا ثمن . وأخذ
يقص على من نوادر إساءة ذلك الفتى في الأحسان ، وغلظته في
الملاطفة ، وتقطعه في البشاشة ، مالو أنه قضى العمر في مناؤاته
والكيد له يكن معتدياً عليه .

قلت : فلم لا تفتشي الحقيقة . وأقل ما فيها أن لا يفترى عليك اناس
بما ليس فيك أو يعييوك بعييب أعدائك ؟؟

قال : سواء على أي عيبي الناس أم يشكرونني . بل أحب إلى أن

يعيوني ويحذروني جانبي من أن يحسنوا الظن ويخدعني وإن المشقة التي احتملها في أقناعهم ببراءتي لأشد كثيراً من الضرر الذي يصيبني من اعتقادهم في اللؤم . إن كان فيه ضرر .

* * *

أنا لا لألوم هذا اللثيم الذي اقتبس دروس اللؤم من العالم كله وكيف وهو يقتبس من أستاذ يلوح له بالعصا أني ذهب . يلوح له بها عند مشيه وقعوده وعند جده وونائه وعند أكله ونومه وعند مصادقته ومعاداته . ويوشك أن ينهال عليه بها فيقتله كلما سها عن درس أو هم بأن يتلمسن لأستاذ غيره .

وأجد من يلوم هذا اللثيم كمن جلس على مائدته بين زوجه وولده ، وبين يديه صحاف الطعام ، وأمامه الأتباع والخدم . فجعل يلوم الصياد الذي خرج يبحث عن صيده في الآجام الموحشة فتقلد سلاحه ومشى ينظر كلما نقل قدمه إلى أمامه وإلى ورائه ، وعن يمينه وعن شماله ، وهو من الحيطة والتربيص يكاد ينظر بكل عضو فيه أو كأنه من التهل التلف يدوس على الشوك ويختطو على جحور الأراقم^(١) يخاف أن هو غفل أن يفوته رزقه أو يشب عليه سبع فيفترسه . فيلوم ذلك الصياد على احتراسه وارتياه ويطول عليه بأمنه ودعته ، وما كان هو أكثر منه أمناً لأنه أكرم قلباً ولا كان الصياد أكثر ارتياها لأنه ألم بحينا^(٢) وأرداً عنصراً .

. (١) الأرقام هي الحياة .

. (٢) الخيم الطبيعة .

أنا لا ألوم هذا الشيم على أنني لا أحب أن يكثر أمثاله في العالم .
وعذرني إياه إن الذنب في لؤمه على قومه ، ولكن البعض المرذول
هو الشيم المحبول فإنه لعيم أحسن الناس إليه أم أساءوا . ولادته جريمة ،
وموته - وليس سوى موته - تكفير لتلك الجريمة .

البخيل

كان لي من أعرف من الناس رجل لا يعرف الناس أبخل منه .
كان هذا الرجل إذا اشتهرت نفسه الشيء مما تشتته الأنفس من طيبات
المأكل والملابس أخرج القرش من كيسه فنظر إليه نظرة العاشق المدنس
إلى معشوقه ثم رده إلى الكيس وقال : هذا القرش لو أضيف إليه
تسعة وتسعون مثله لصار جنبيها ، والجنيه بعد الجنيء يجلب الثروة
العريضة ويجمع المال الحير ^(١) وهبني تهاونت بانفاقه اليوم وسمحت
نفسى به فلا آمن أن تسخو بغيره غداً . فاتما القروش كلها واحدة
في القيمة وليس قرش بأعلى من قرش . والشهوات حاضرة في كل
وقت ، فكأننى اتفقت اليوم باتفاق هذا القرش جميع ما سوف أملكه
وأدخله من المال ، وفتحت على نفسى باب الفاقة الدائمة والعوز
المستمر مطاوعة لشهوة حمقاء ، إن أنا وقمتها ^(٢) الآن ماتت
واسترحت منها وإن آتتها على ما تدعونى إليه كل ساعة كنت كمن
يرمى الوقود في النار ليخدمها ، وكنت كمن يشتهي الفقر ويتنمى
الإعدام وتلك والله الحماقة بعينها .

(١) مال أحير أى كثير جداً .

(٢) ردعتها .

وكان إذا تم عنده الجنيه على هذه الكيفية أُسقطه في صندوق ثقب له ثقباً في غطائه ولم يجعل له مفتاحاً لثلا يتعدى الفتح والإغفال ، ويجرأ على ذلك الذخر بالكشف والإبتذال ، وخوفاً من أن تراوده نفسه لفروط شغفه بالذهب على مس جنيه من تلك الجنينيات فيجر المس إلى التحرير ويجر التحرير إلى الأخذ فالاخراج فالصرف وهناك الطامة العظمى والداهية الشؤمى ، ويقول إن سلماً أنت واقف على قمته حرى أن تصل يوماً إلى أسفله . وما لك أن لا تغلق الشر من بابه وترقى الفتق من أوله وتتلافى الأمر في بدايته قبل أن تتعذر عليك نهايته . وكان يرى الفقر من بعيد فيظنه أدنى إليه من حبل الوريد . فالفقر عنده محيط بكل مكان ، شامل لكل زمان ، ومادام في الأرض درهم فهو فقير إليه وما دام فقيراً فالاطمئنان محال عليه ، ولقد أفنى أن نسمى البخلاء عبيد الذهب وكان الأصوب أن نسميهم عبيد الفقر لأنهم يضخون الذهب للفقر . وهم يحبون الفقر ويخشونه . يحبونه فيعيشون عيشة المعدمين والرؤساء ، مع تمكنهم من الثراء . ويخشونه فيتقونه ، وعندهم له من كل دينار وقاء .

فإذا سقط الجنيه في ذلك الصندوق .. لا بل في تلك الحفرة كانت تلك السقطة آخر عهده بالهواء والنور ، وآخر عهده بالهبات والبيوع ، وآخر عهده بالأأنامل والكافوف ، وهوى من ذلك الصندوق في منجم كالمنجم الذى كان فيه . وشتان بين المهد واللحد . ومات موتة لا تنشره منها إلا يد الوارث إن شاء الله وقد فعل .

ولو أتيح لتلك الجنـيات أن تتحـادـث في ذلك السـجنـ المـطـبـقـ عنـ مـاضـيـهاـ كـماـ يـفـعـلـ السـجـنـاءـ .ـ إذـنـ لـسـمـعـتـ منـ أـحـادـيـثـهاـ العـجـبـ العـجـابـ بـيـنـ جـنـيـهـ رـحـالـةـ جـوـابـ ،ـ يـتـنـقـلـ بـكـ مـنـ السـوـيدـ إـلـىـ الـكـابـ ،ـ وـيـنـبـعـوـكـ عـنـ الـأـعـاجـمـ تـارـةـ وـتـارـةـ عـنـ الـإـعـرـابـ وـجـنـيـهـ فـرـارـ غـدارـ ،ـ مـاـ سـلـمـ بـالـلـيلـ إـلـاـ وـدـعـ بـالـنـهـارـ ،ـ وـجـنـيـهـ نـشـأـ فـيـ الـحـانـاتـ وـالـمـاـخـيـرـ ،ـ فـاسـتـرـقـ رـنـتـهـ مـنـ رـنـاتـ الـكـوـوسـ وـالـقـوـارـيرـ .ـ وـجـنـيـهـ عـاـشـ الـأـبـرـيـاءـ وـالـجـنـاءـ ،ـ وـرـافـقـ النـسـاكـ وـالـغـوـةـ ،ـ وـجـاـوـرـ الـمـعـزـيـنـ وـالـسـرـاءـ ،ـ وـمـرـ بـالـمـسـاـكـيـنـ وـالـعـتـاـةـ ،ـ وـطـفـرـ مـنـ الـأـصـدـقـاءـ إـلـىـ الـأـصـدـقـاءـ ،ـ وـمـنـ الـعـدـاـةـ إـلـىـ الـعـدـاـةـ .ـ وـكـلـهـاـ تـشـهـدـ شـهـادـةـ لـاـ بـهـانـ فـيـهاـ أـنـ مـالـكـهاـ الـأـخـيـرـ أـقـدـرـ مـنـ قـنـصـ الـدـيـنـارـ ،ـ مـنـ الـأـبـرـارـ وـالـفـجـارـ ،ـ وـأـخـيـرـ مـنـ صـادـ النـضـارـ ،ـ مـنـ الشـطـارـ وـالـأـحـبـارـ وـأـوـلـ مـنـ رـاـضـ هـذـاـ الـمـدـنـ السـيـارـ ،ـ عـلـىـ السـكـيـنـةـ وـالـقـرـارـ .ـ

ولـوـ أـتـيـحـ لـكـ أـنـ تـشـهـدـ ذـلـكـ الـبـخـيـلـ وـقـدـ مـثـلـ عـنـدـ صـنـدـوقـهـ وـأـلـجـأـتـهـ الـضـرـورـةـ إـلـىـ الـاسـتـمـدـادـ مـنـهـ .ـ وـنـاهـيـكـ بـهـاـ مـنـ ضـرـورـةـ .ـ إذـنـ لـحـسـبـتـ أـنـكـ تـشـهـدـ فـيـ جـنـحـ الـلـيـلـ الـأـعـكـرـ سـارـقـاـ يـنـبـشـ الـقـبـورـ عـنـ أـكـفـانـهاـ ،ـ وـقـدـ تـمـلـكـهـ الـمـلـعـ مـنـ حـرـاسـهـ وـسـكـانـهـ ،ـ أـوـ لـحـسـبـتـ أـنـكـ تـشـهـدـ كـاهـنـاـ مـتـحـثـثـاـ يـقـومـ عـنـدـ صـنـدـوقـ النـذـورـ يـهـمـ بـأـنـ يـمـدـ يـدـهـ إـلـيـهـ فـيـتـحـرـجـ مـنـ أـنـ يـسـتـحـلـ وـدـائـعـهـ لـثـلـاـ يـحـلـ عـلـيـهـ قـصـاصـ اللـهـ وـيـحـقـ بـهـ غـضـبـهـ .ـ فـانـ الـحـتـ عـلـيـهـ الـحـاجـةـ أـقـسـمـ أـنـ لـنـ يـنـامـ وـلـنـ يـهـدـأـ أـوـ يـرـدـ إـلـىـ الـصـنـدـوقـ مـاـ اـسـتـعـارـهـ مـنـهـ .ـ وـقـدـ لـاـ تـجـدـ بـيـنـ أـلـفـ كـاهـنـ كـاهـنـ وـاحـدـاـ يـقـسـمـ هـذـاـ الـقـسـمـ وـيـرـ بـهـ وـلـكـنـكـ لـاـ تـجـدـ بـيـنـ أـلـفـ بـخـيـلـ بـخـيـلـ وـاحـدـاـ يـحـنـثـ فـيـ هـذـهـ الـيـمـيـنـ .ـ

ففي وقفة من تلکم الوقفات افترض البخیل من صندوقه جنیها وآلی بالطلاق من عرسه أن لا یدخل البيت إلا والجنیه معه . وذهب إلى السوق فکدح فيها ما کدح واحتال حتى استرجع الجنیه نصفاً ذهباً والنصف الباقي قطعاً فضیة . وكانت تلك عادته إذا أبدل الفضة بالذهب . کی تكون کل قطعة صحيحة صماماً حديدياً يحبس فيها تحتویه من القطع الصغیرة أن تتناثر وتسرب إلى إحداها نزعات الجود ووساویس النفس الأمارة بالجميل والخیث یسیء الظن بنفسه ویتهمها بالسخاء عن القلیل الطفیف مداعبةً لها وإدلاً عليها . وإنما فقد وثق وثوق المؤمن بایمانه أنه لو انتالت^(۱) عليه نقود المشرقين والمغاربین دراهم ودوانق وسحاتیت لما سولت له نفسه أن ینفق سحتوتاً منها في غير ما یدفع التلف جوعاً والهلاك عریاً . فما تمهل حين صار الجنیه في يده إلا ریث أن أهرع إلى الصیرف فناوله إیاه مفرقاً وقال أعطني به جنیها ذهباً .

قال له الصیرف : هات خمسة ملییمات

قال البخیل : وعلام هذه المللیمات الخمسة : أنك تأخذ هذا الجعل من الناس على أن تنقدهم الفضة بدل الذهب ، وأنا أعطیك فضة وأطلب ذهباً ، أفلأ تحمد الله على أثني صفحات لك عن حقی وجيئتك ساعیاً إلى مكانك ۹۹

فما زاد الصیرف على وکزه في صدره وکزه قدفت به إلى الجانب الآخر من الطريق . فما تململ الرجل ولا تألف . بل وقف حيث

(۱) انتالت .

قذفت به الورقة صامتاً . والصيرفي لا يشك في أنه ينتظر أن يمر الشرطى فيستعدى عليه . فمر شرطى وثان وثالث لا يدعوه ولا يرحب مكانه . والناس يظنون أنه يحدث نفسه بالإإنقضاض على الصيرفي فيوسعه ضربا ولكمما فيخطئونه ويلومونه وينصحون له بأن يعتذر إليه ويسترضيه وبينا هو كذلك أقبل على الصيرفيشيخ ريفى ، فكذب البخيل كل ظن وعاجل الشيخ فكان أسبق من يده إلى جيئه وصاح به : رويدك يا هذا إنك ت يريد أن تبدل جنيها وهذا اليهودى يتقادسك خمسة ملليمات وأنا أقنع منك بملليمين ، فهاك الفضة وهات الذهب . واتفت إلى الصيرفي فقال بارك الله فيك فقد قيضت لنا رزقاً كنا في غفلة عنه ولا يزال هذا دأبنا كلما اجتمع جنيه عندنا ؟ ثم ولى والصيرفي يكاد ينشق عن جلده من الغيظ والناس يضحكون .

وكانى بك أية القارىء تظن أن الرجل آلى بالطلاق وحرص على أن لا يمين فيه وفاءً لزوجه وضئلاً بذات فراشه واحتفاظاً بأم بيته . فإياك أن تظلم الرجل بهذا الظن ، فان الإحتفاظ والضيء بشيء غير المال ضعف يربأ بنفسه عنه . ولكن تحرى أفتح الإيمان كفارة وأصعبها كلفة فرأى أن كفارة الحلف بالله سهلة وربما كان في الصيام من الإقتصاد ما يغريه بالحنث كلما أقسم بالله . فاختار بين الطلاق يهدى نفسه به ويخوّفها من مؤخر الصداق ومؤونة الأولاد ومصاريف القضايا ، ثم لابد له من زوجة تكفيه نفقة الخادم وشراء الطعام من السوق . وهذه الزوجة لابد لها من مهر قل أو كثراً ، دع عنك الأعراس وما تستدعيه عن الخروج عن العادة في الإنفاق ليلة أو ليلتين . فإذا آلى بالطلاق ذكر كل ذلك وأكثر منه فكان قيداً لا

يستطيع منه فاكا . ولا يفوته مع هذا أن يصانع نفسه بأنه من القابضين على دينهم الذين يجتنبون حدود الله ولا يلعبون بيمين كيمين الطلاق ، والحقيقة أنه لا يجتنب حدود الله لأن اجتنابها يوافق هواه . ولو كلفه خوف الطلاق معاشر ما يصون من ماله لجار عن كل حد لله وللخلق . وعلى أنه لم يضطر يوماً إلى امتحان دينه ولم يقف بين ارتضاء الطلاق وجراحته وانتهاك حدود الله وأوامره . لأنه لم يكذب على صندوقه قط . فإذا استعار منه في الصباح سدد له الحساب في المساء .

ومرض هذا البخيل مرض الموت فجزع جزعاً شديداً ، وكان جزعه لأنه سيموت عن أقل من عشرة آلاف جنيه كاملة وكان ذلك كل أريه من الحياة . فاستحضر الطبيب بعد أن نهكته العلة ودب السقم في أوصله وعظامه ، فأمره بأن يتعاطى دواء وأن يقصر طعامه على لحم الطيور . وكان صاحبنا على مذهب النباتيين اقتصاداً لافلسفة . فتملص يحابيل الداء ويتملق الطبيب عسى أن يعدل على وصفته ، والداء يائى إلا لحوم الطير والطبيب مصر على رأيه . ولما كان أربه في العيش لم ينته والعشرة الآلاف لم تكمل فقد رضى أهون الشررين وأصاخ لقول الطبيب وصار يأكل كاً أمره وهو يتلهف ويتحمس ويتابع كل لقمة يريدها بعملية حساب وهل أصعب في الهضم من الحساب وأنقل على المعدة من الأرقام الصماء !! ولم يزل يقول بعد كل أكلة : الله الله على الصحة !! لو كنت الآن صحيحاً أما كانت تكفييني أكلة بدرهم !! فلم يسعفه الدواء ولم يرأه الغذاء . وما ذاك إلا لأن الطبيب دواه بالطلب الذي يُداوى به الناس ووصف

له ما كان يصفه لكل مريض مصاب بمثل مرضه ، ونسى أنه يداوى دائمين لداء واحدا ، وفاته أن دائمين أحدهما مزمن والآخر طارئ لا يصلحان بفرد دواء ، ولو سمعه كيف كان يأسف على الصحة ولماذا كان يأسف عليها لعلم أن صحة هذه البنية غير صحة سائر البنى وأن لها مرضًا غير أمراضها وأن الغذاء الذي ظن أنه يشفيه ويقويه قد حز من بدنها وأضاف مرضًا على مرضه . وقد مات المسكين بداعه ذاك ، وما أحسبه ندم على شيء وهو يفارق الدنيا ندمه على تلك الدرارم التي أطاع فيها الطبيب جزافا . وماذا عليه لو قد عصاه فلم يفقد سوى حياته !!

ولهذا البخيل نوادر عديدة يذكرها معارفه فكان لا ينقضى له يوم إلا على نادرة طريقة مع باائع أو زميل أو شريك أو مدين وكانت أستظرفه فأتودد إليه وأشيعه على مذهبه فلا اقتضى في اطراء الاقتصاد ولا أبخل بكلمة في مدح البخل وإذا فاوضته في الأدب أو طالعت معه في الكتب لم يكن أحقر على لسانى من أسماء هرم بن سنان وحاتم طيء وكعب بن مامدة ومعن بن زائدة وأبي دلف وغيرهم من أجواد العرب فأشنع بهم وأسائل الله السلامه من مثل مصيبيتهم في عقوتهم وأمواهم وأقول له ما أجدر مadar بتمثال من الذهب ، فيقول أى . وألى ولو لا ما في ذلك من الإسراف ، ولشد ما كان يتهلل وجهه حين أتلوا عليه نكبة البرامكة فيقول حيا الله الرشيد ما أحكمه وأحرزمه ، وقبحهم الله ما أحرقهم وأحرقهم . بادوا وخلفوا وراءهم للناس مثلا سيئا وقدوة ذميمة . وكانت له في أسباب نكباتهم فلسفة خاصة لم يفتح الله بها على أحد قبله . يقول لك لا تصدق ما

يتمشدق به كذبة المؤرخين عن أسباب نكبة البرامكة . فوالله ما نكبهم ولا قتلهم إلا الإسراف والتبذير . أسرفوا في البذخ وبدروا أموالهم في الصلات فحسدتهم الموصول وسخط عليهم المحروم ، فترصدت لهم العيون وتغرت عليهم الصدور واستعظم الرشيد عليهم ما هم فيه فمثل بهم ذلك التشيل وفعهم في أرواحهم وأموالهم وأماهم فلم يغن عنهم صنائعهم وذووهم . ولو أنهم بخلوا لنامت عنهم الأنوار وخرست عنهم الأفواه ، لأن من نعم الله على البخلاء أنه يجمع لهم بين مزبتي الغنى والفقير ، فلهم من الغنى المال الكثير وهم من الفقر الأمان من حسد الحاسدين . ولهם من الغنى القدرة على ما يتغرون ومن الفقر القناعة يسيراً ما يأكلون ويلبسون . وما مزبتيان لا يجمعهما الله إلا لمن رضى عنه من عباده .

بيد أنني في صحبتي له كنت لا أستطيع ساعةً أن أفكر بأنني أصاحب إنساناً له على مثل الذي لي عليه ، وكنت أحمل نفسي على أن تصدق أنه من البشر كما تراه عيني فلا تذعن . وكيف وهي لاتنس باهني اختلاف بين ملاطفتي إياه وملاطفتي الكلب أو القرد الأليف ليأنس بي ولا ينفر مني . ولقد ضل والله من يتآلف الكلاب والقردة ويلهم بروية الحيوانات العجيبة وعنه البخلاء يضمهم وإياه جنس واحد ومدينة واحدة فلا يتآلفهم ولا يخف إلى رؤيتهم . أليس لو جاءكَ رجل فأخبركَ بأن في مدينة كذا دابة تموت من الطوى ^(١) وبين يديها الطعام الفاخر ويفرش لها المهد الوثير فتجفوه إلى الأرض

(١) المجموع .

الخشنة وتطلق في الفضاء الفسيح فتزمجر وثن ، وتسجن في قفص الضيق فتطرد وتطمئن ، وقيل لك إن هذه الدابة منفردة بهذه الأطوار بين بنات جنسها . أما كنت تبادر إلى تلك المدينة أو تمني أن تساق إليك تلك الدابة ؟ فالبخيل هو تلك الدابة الغريبة في تكوينها الشاذة في أطوارها ، التي تعد من الناس وليس منهم وتجانسهم في الصورة والقوع ولا تشاكلهم .

إن الناس يعرفون البخل بأنه الحب المفرط للمال . وهذا تعريف ناقص من جميع أطرافه . وهل العلاقة بين البخل والمال إلا كالعلاقة السطحية بين العلم والأوراق ، وبين الشجاعة والسيف ، وبين الزمن وال ساعات ؟؟ وقد وجد البخل قبل أن تختجن الأموال وتسك النقود كما سلف العلم قبل أن تصنع الأوراق وتقدمت الشجاعة قبل أن تطبع السيف ودار الفلك قبل أن تختبر الساعات . ولو أصبحت الدنيا قد انقرضت منها الأموال وفني من أيدي الناس الذهب والفضة لما قضى ذلك بفتناء البخل من قلوب البخلاء لما قدمنا من أن البخل شيء بمعزل عن المال .

ولما البخل عاهة تحجب الفكر وتفسد الطبع وتفرد المرء عن الفطرة العامة بين بنى جنسه بفطرة منكوبة عوجاء . وتذره خلقاً عجبياً كل حظه من الحياة أن يحرم نفسه حظوظ الحياة . يستغرق الوع في طلب الوسيلة ثم لا هو يقنع بالوسيلة ولا هو يطلب بها الغاية . وليس البخل عاهة واحدة بل هو جملة عاهات ممثلة في هذه العاهة . فهو مزيج من الجبن الدنى الذي يصور للمرء الخطر

المستحيل كأنه قضاء حتم لامرد له ، ومن الخسأة التي يتساوى عند صاحبها الفخر والغريب . وتلتحق عنده مراوغة الهوان بمقاومة السؤدد ، ومن البلادة التي تميّت فيه كل أريحية فلا تهتز في نفسه أمنية أو عاطفة تقوى على كسر قيود شحه وجبنه ، وقد ظهرت هذه الخلال للناس قبل أن يتمدّينوا بآلاف السنين ومقتولها فمقتولوا البخل متفرقاً قبل أن يمّقتوه مجتمعاً . وغاية الفرق بيننا وبينهم أنهم كانوا يستضعفون من تكون فيه حالة من هذه الخلال فيبتذلونه عنهم ويهمسون حقه ويدوّسون حرمته ولربما طلوا دمه وتبّرأ منه ولاة ثأره . وأما في مدنيتنا هذه التي وضعت سنة المال موضع سنة الحياة فقد صار البخيل فيها يحمل ويبرم ، ويؤخر ويقدم ، ويحمل ويحرم ، ويستشفع إليها بيده فيها المال ويدّيها جبنه وخسته وببلادته فتقبل منه هذه لتكل . وأنها لعمرى لمن الحصول التي انحاطت بها المدنية عن الهمجية - وما هي بالقليل فكم خصلة في المدنية يستحب المدنى الهمجية لأجلها ويأنف الهمجي بحق أن يتصرف بها ??

اللغات والتعبير

لو لا أن الناس من أصل واحد في الخلق ، ومن لحمة قرية في النسب ، بحيث أن ما يعروه أحدهم يعروهم جميعاً وما يصدق على جميعهم يصدق على كل واحد منهم ، لما أجدت عنهم اللغات في كتابة أو كلام ، وعُتَّقِلَتْ أُسْتَهِمْ عن كل فهم وإفهام .

ولو كان التقارب بينهم تاماً ، والتشبه في السن والميل والسلالة محكماً لما افتقروا إلى اللغة ، ولكن يستشعر أحدهم في روعة ما يقوم في روع الآخر من غير حاجة إلى الشرح والبيان .

ولا ريب أن الناس يتتفاهمون ببواطنهم أكثر مما يتتفاهمون بظواهرهم ، وإن لاح لنا أن الأمر خلاف ذلك لطول عهدهنا باستخدام اللغة في الإعراب عن مرادنا . فما اللسان إلا موضع ومفسر لما عساه أن يتبعهم على السامع من محمل سر المتكلم وما قد تختويه أفكاره ولا يمكن أن تعبّر عنه تمام التعبير وجداوله ، أما حالته النفسية فهي أفعى من أن يفصح عنها اللسان بل أفعى من أن يخفيها إذا حاول إخفاءها .

وما كان الإنسان قبل آلاف الحقب أيام هو بعدَ بَعْيَم سارح في مراتع العجمة ، يعول فيما يراه من رضى صاحبه أو غضبه ، ومن صدقه أو مكره ، ومن أمانته أو خيانته ، إلا على ما يتفرض في أسرار وجهه وغمزات طرفه وحركات أعضائه . وكان إذا كلمه لم يكديثق

بكلامه ويؤمن اغتياله أو^(١) يطابق مدلول أقواله ما وقرف قلبه من مغزى اشاراته ومعنى ملائمه ، فهو يأْتِنَ السليقة ويرتاب في اللسان . وهذا سبب إعجاب الناس بالاشعار والخطب والكتب التي مصدرها السليقة وامترائهم فيما تبعث به يد الصنعة . لأنهم يقرأون نتاج السليقة فينفذ إلى سلائقهم ويصيب موقعه منها ويجري من القارئ مثل ما حرك من نفس الشاعر أو الكاتب فيعلمون أنه صدقهم وحسن لهم عن سريرته فيرثون إليه .

ويقرأون نتاج الصنعة فلا يجاوز أستههم وكأنهم يقرأونه وهم ينظرون الشاعر أو الكاتب وهو يتعمد للظهور لهم بغير مظهره ، ويتنقب لهم بنقاب يخفي وجهه أو يديه في غير صورته ، أو يرائهم بتجميل هيئته وتدميم طلعته فيخال لهم الشك فيها ويعرضون عنه . إلا إذا كان القارئ من الغرارة بحيث يصدق كل ما يقال أو من الجهل بحيث لا يميز بين السليقة والصنعة ، فإنه يقبل حيئتها كل قول على علاته . فلا تمنعه المماذقة عن المصادقة ، وتنكسر خزانة نفسه بغير اللص أسهل مما تنفتح لصاحب المال .

ولقد والله أحسن جولد سمث إذ يقول في إحدى رواياته : «لنسنا نستعمل الكلام للإفصاح عن حاجاتنا بقدر ما نستعمله لمداراتها» . فقد طمس الكلام إلى اليوم من الحقائق أضعاف ما فند من الأكاذيب . وضلل من المهددين أكثر مما هدى من الضالين ، وإنك ربما تقرب الرجل فتطلع من سيماه على ما يرييك فتتوjos منه فإذا

(١) أو هنا يعني حتى .

سأله و كان من ذوى اللباقه والبراعة في المراء والخداعه لبس عليك الحقيقة وأزال الريب من نفسك ، فينصحك لسان حاله و يغشك لسان مقاله . و كان آمن لك لوانك صدقته ساكتا ولم تصدقه ناطقا .

هذا فيما يملك الناس أن يبيئوه أو يُكثّنوه . وإن هناك أفكاراً تلتوى على اللغات وتشمس عن التقيد بالكلمات . فما فضل الناطق في هذه الأفكار على الأعجم ؟؟ وما زيادة الفصيح على الأبكم ؟؟ لا فضل ولا زيادة . ومن الأفكار ما هو أعراض من أن يُعبر عنه ولكنها أقوى من أن يكتم . السكوت عنها يمض والتعبير عنها يمتنع . لم يتغلغل الكلام إلى أعماقها فيخرجها ، وليس هي بالتفاهة الضئيلة فتدفعها في مهدها وتدرجها ، وقد خصت ولم تعم فلم يكن لها حظ من اللغات العامة ، وتفرقت ولم تجتمع فليس بين أصحابها المتفرقين لغة متبادلة . فاعلم إنه لا يريحك من هذه الأفكار إلا سكوت كالخطاب . وذلك أن تجدولوا على البعد من يعاني مثل هذه الأفكار فيحيط بك كتابك من عنوانك ، وتلهمه الكلمة العاجلة ما تضيق به الفصول المذيلة ، ويسبح معك برهة في عالم لا السنة فيها ولا آذان ١١

يتحدث الرجال وبينهما تناحر في الأمانى والأذواق فيفرغ أحدهما جعبة بلامته ، ويتهى غرار حجته ، ويستنفذ أفانين حيلته ، ويحسب أنه أقنع جليسه واستولى على لبه ثم ينهض هذان الجليسان وأن بينهما من بعد لما هو أبعد مما بين الميت ومناديه ، والنجم ورائيه ويجلس غيرهما وقد توافيا على أمنية ، وتمازجا في الطوية ، فيقضيان الساعات لا ينسان إلا بالكلمة بعد الكلمة ثم ينهضان وقد نقل كلامها إلى

أُخِيَه خلاصه نفسه وطبع صورته في صدره . ومن منا من لم يشاهد الحالتين فتبين له لغة الصمت أحياناً مقدار حداثه لغات الكلام .

وأنى لأصغر شأن هذه العلوم والآداب القائمة كلها على تفاصيل اللغات كلما تأملت فرأيت الأشياء الكثيرة التي تقوم بوجدانات الإنسان ولا يحس بها ، والتي يحس بها ولا يعبر عنها ، والتي يعبر عنها ولا تصل برمتها إلى عقل سامعها ، فيتأكد لي أن الناس في حاجة إلى تفاصيل أرقى من هذا التفاصيل اللغوي . ولعل هذا النقص هو علة كثير من المشاكل التي تقع بينهم أئم وأفراداً وتزول لو كان التفاصيل بينهم كاملاً .

فليتتخذ الناس اللغات رموزاً وإشارات تنبئ عن المعانى لمن يعرفها ولا تمثلها لمن لا يعهد بها أو يأنس بها . وليعلموا إنهم ما داموا لا يقولون كل ما يريدون أن يقولوه فهم خرس وإن نطقوا . وإنما البليغ المبين من الناس رجل يجيد الإشارة بلسانه أو يراعي . ولن تعنيه الإجادة عن أن يكون سامعه مهمنا على التنجيم والتخمين . وأما من اخطأه هذا المران ، فسيان عند الإشارة باللسان ، والإشارة بالبيان !!

قوة الإرادة

خطر لي أن أبتدع في التجارة بدعة حسنة فاخترت أن أتاجر بالأخلاق النافعة للمصريين . فاقتديت بأولى الخبرة والنظر بعيد من التجار إذا عزموا الاتجار بسلعة من السلع في بلد من البلدان ، يتroxون حاجة السوق ويستقصون عادات أهل البلد ثم يقلمون على بصيرة من عملهم وأمل وطيد في الزواج والنجاح فتوخيت حاجة السوق في مصر وتقسيط عادات المصريين وفتشت عن الخلق الذي ينقصهم أكثر من أي خلق سواه فعلمت أنه قوة الإرادة فعولت على أن يكون اشتغالى بهذا الصنف من الأخلاق .

وراقي هذا الخاطر فمنيت نفسي رواجاً سريعاً وربحاً جزيلاً وأتمنى سأكون أنفق تجارةً وأكثر عائدة من المتجرين بيننا بالوطنية والدين لأن حاجتنا إلى الوطنية والدين أقل من حاجتنا إلى الأخلاق ولا سيما قوة الإرادة . وفي مصر كثير من الوطنين والمؤمنين ولكن قل فيها من كملت عليه نعمة الأخلاق فغنوها عنها عن المزيد . وذهبت أحصى أرباحي ومكاسبى في السنة الأولى فالسنة الثانية وفي السنتين التالية فضلاً بها الحصر ولم يستوعبها الحساب ، وسرني أن أحلم بأنه سوف لا يكون في الائتمان عشر مليوناً الذين يسكنون وادى النيل مصرى واحد إلا لديه مقدار كبير أو صغير من تجاري ، فقلت أنها والله للتجارة التي لا تبور .

واكترىت الدكان في أوسع أحياء العاصمة وأحلفها بالسابلة

والقطان وزخرفته أيا زخرفة فصفحته بالبلور وغشيت جدرانه بالذهب وصنعت رفوقة من خشب الهند ونقشت عليه لوحة من أجمل مانخط الكاتبون كتبت عليها «هذا دكان قوة الإرادة». يعطيك على نفسك سلطاناً لاحد له» ثم جلست على بركة الله أثير للتعب والعمل وأخففهما عنى بما أرجوه من المنفعة لى وللناس.

فكان أول من سمح لي في صباح أول يوم فتحت فيه الدكان رجل سكران قد تخالعت أعضاؤه من الوهن واحمرت عيناه من السهر وانعقد لسانه من الخمر فوقف قبالة الدكان يتربع ذات اليمين وذات الشمال وأوشك أن يمبل على لواح البلور فيحطمها ويقدر علينا صباح الاستفناح بطلعته المشؤمة. ولو كنت من يتطيرون لأغلقت دكانى لساعتى وجزمت بالفشل ولكنى تصبرت ولبشت أحظه وهو تارة يحملق إلى وتارة يتهمى العنوان حرفا حرفا حتى أتى على حروفه بعد عشق النفس ثم قال لي وكأن روحه تصعد مع كل كلمة!

أنت صاحب الدكان؟

قلت نعم

قال أنت بعينك؟

قلت أنا هو بعيني لاسوائى ...

قال وتبيع قوة الإرادة؟؟

قلت من جميع الأصناف والأثمان

قال ولنا أيضاً تبيعها؟؟ .. لا تؤاخذنى فإني أحب أن أستفهم؟؟

قلت أجل . لك ولكل من يشتريها

قال : فأنها أسهر كل ليلة كما ترى وأسكر وأقامر وأجيء في هذه الساعة فيثقلني النوم ولا أحب أن أنام . فهل عندك صنف من الإرادة أتسلط به على النوم ويقويني على السهر ليل نهار ؟

قلت : ليس هذا من الأصناف الموجودة ولو وجد لما بعنه . ونحن باعة الأخلاق لا نقل في الأمانة لصياعتنا والحفظ بذمتنا عن الصيادلة . وقد تعلم أنت أن الصيادلة لا يسعون كل دواء لكل طالب ولكن عندنا أصنافاً أصلح لك من هذا الصنف . فهل لك فيها ؟

قال : أرنيها

فسررت له أسماء الأصناف التي في الدكان وأريته كل صنف منها في علبه ولم آله تفصيلاً لفوائدها وترغيباً فيها وبسطت له أسماء الإرادة المانعة . وخصائصها منه الناس عن مقارفة العادات الضارة . من التدخين إلى المقامرة ومن الكذب إلى الوضيعة . وتختلف المقادير والأثمان ، باختلاف الأدمان والأزمان .

وأصناف الإرادة العاملة وخصائصها إيلاء الناس عزيمة وصبراً على تذليل مصاعب الأعمال وتحقيق همامات الأنفس . وأرخصها قضاء الماء واجبه ، وأنفسها قضاوه واجب أمته ونوعه وهي أغلى من الإرادة المانعة لأن القدرة على أداء الواجب أتدر من القدرة على اجتناب المحظور . وأعلى هجرك ما تواحد به فعلك ما تحمد عليه . وعددت له أسماء نفر من عظماء الرجال الذين دفعتهم قوة الإرادة

ودفعت بهم أحدهم إلى ذروة من الشرف تتقاصر عنها الذري . وأطربت في الوصف والتحسين وهو يصغي إلى بما بقى في حواسه من الانتباه ، فأطمعنى أصغاؤه في أن يكون أول تجربة ناجحة وأصدق إعلان عن الدكان . ورأيته يطرق ملية ثم قال : ولكن من يضمن لي جودة الأصناف ويكفل نقاوتها من الأخلاط والأوشاب .

فقلت في نفسي سبحان الله ! هذا الذى يذهب كل ليلة إلى الخمار لا يسأله أيسقية سماً أم حمراً . ويفشى موائد القمار يخسر كل ليلة صحته وماله ثم ينساق إليها بغير سائق لا يريد أن يشتري قوة الإرادة إلا بضامن ؟ ولكننى جاريته وقلت له : لا خوف عليك من هذه الجهة فسأعطيك علبة نموذجاً فجربها وسل من شئت من التجار ذلك بعد ذلك الخيار .

* * *

انصرف السكران بالعلبة ذلك اليوم وعاد إلى في اليوم الثاني مفيقاً صاحياً فجلس بتؤده وأدب و قال لي : لقد تعاطيت أمس علبتك ولم أعاشر ولم أقامر ولا أدرى أبغضل العلبة ذلك أم لنفاد المال مني . وكنت إذا نفد المال مني افترضت ، فلم أفترض أمس ، فلا أدرى أيضاً كان ذلك قوة في الإرادة أم حياءً من الرفض وكانت لا تستحب فلا أدرى والله أكان حياءً خلقاً جديداً اكتسبته منذ تعاطيت قوة الإرادة أم هو لتكرار الطلب واليأس من الإجابة .

سألنا فأعطيتم وعدنا فعدتم
ومن أكثر التسآل يوماً سيحرم

على أنني سألت التجار تاجرًا فاستغربوا اسم الصنف ولو نه
ورائحته ومعدنه واتفقوا على أنهم لم يسمعوا به لافي الشرق ولا في
الغرب . ماعدا التاجر فلانا فقد عرفه وفحصه قليلا فرده إلى مشمئزا
وهو يقول : خذ ياشيخ ! فقد سمعنا هذا السخيف والتدجيل ! وهل
فرغ الناس من سلطان الهموم فيسلطوا عليهم قوة الإرادة أيضًا ؟؟
وإذا كانت عوائق الدهر تحرك شطرًا من ملذات الحياة وأنت تحرم
نفسك الشطر الباقي فأنت لاشك الذي يقال فيه أنه عدو نفسه ..
فخل عنك هذه الأضاليل ولا يغرنك ما تقرأ من العناوين وما تسمع
من الموعيد فلو كان في هذه التجارة خير لما غفل عنها الناس إلى
اليوم ، ولم ينسها دهاقين التجار الأزمان المتطاولة لتكون بدعة من
بدع هذا الزمان المنكود .

فأسكت هذا المهزار وندمت على التفريط في العلبة وكان أعجب
ما عجبت له كلام ذلك التاجر لعلمي بأنه من يميزون من أمثال هذه
الأصناف ويحسون بنقص السوق فيها . ولم يكن بيننا محاورة أو
مشاركة . فخفى عنى غرضه من تبغيض الناس في بضاعة ليس بيني
وبينه منافسة عليها . ولكنني وقفت فيما بعد على سبب ذلك . وهك
بيان ما وقفت عليه :

* * *

رأى فلان المذكور هذه التجارة المستحدثة فقدر لها الربح الطائل
والرواج السريع ورأى أنه ليس أيسر عليه من تقليدها . شأن الأغلاق
النادرة . تزيفها كثير والغش فيها جائز ، وذاك لأن عارفيها معدودون

ولأن جاهليها يحكمون عليها باللون والرونق وليس بالثمرة والجوهر . فقرر بينه وبين شيطانه أن يستفيد من هذه الفرصة ويختص بذلك البربح فما وني دون أن فتح له دكانا تجاه دكانى وتأنق في ترويقه وتنظيمه ، وكتب عليه «هذا دكان قوة الإرادة الصحيحة . يعطيك سلطاناً لاحد له على ملذات الحياة» .

فتح الدكان واستأجر له دلالا سليطا يفتأ سحابة النهار بصرخ بصوت كقصف الرعود أو قرع الطبول : ياطالب الإرادة الصادقة ، حتى على الغنيمة قبل فواتها !! ياعشاق العزيمة الماضية هلموا إلى أعظم معمل للعزيمة الماضية ، هيا إلى أرخص سلعة سعرًا وأسرعها فعلا وأصمدها على الطوارئ أثرا . إرادة لا تتكاءدها^(١) عقبة ولا تصددها عن غايتها طيبة . فمن اشتوى السكر فصدقته عنه مرارة الراح فليشتر من هذا الدكان فيستعدب تلك المكرارة ويعاف عندها كل حلاوة ، ومن صبا إلى الشهوات فأشفق من عقابيلها ومحباتها زودناه بقوة إرادتنا فأصبح لا يحفل بالعدل والملام ، ولا يبالي بالضم والسوق ومن تورط في القمار ثم تهيب خشية الإلماق والدمار ، ومخافة الفضيحة والعار ، فعندنا ما ينزع منه تلك المخافة ، ويضحكه من هواجس تلك الخرافة . وعندنا لكل مرید إرادة ، ولكل إرادة شهادة . فالبدار البدار ! قبل غلاء الأسعار فالليوم بدرهم وغدا بدينار .

فما شككت في أن المسكين معتوه قد خسر رأسه وسوف يخسر

(١) تكاءده العقبة : وقفت في طريقه .

رأس ماله وتوقت له الخراب الجائع القريب ، إذ من أين له يزاحمني فتجارني وأنا مبتدع التجارة وهو المقلد . وأنا أبيع إرادة الجد والعمل ، وهو يبيع أرادة اللهو والكسل . ولكن سرع ما أخطأ حسابي وارتد على تكهنى . وما راعنى إلا الجماهير على أبوابه يتکوفون^(١) وبضائعة في كل واد تسير ، بحيث لم تخلي منها المدينة والقرية ، والبيت والحانوت ، والحانة والنادى ، ولم ينته الشهر ففتح دكانا جديداً إلى جنب دكانه ، ودار المخول فكان له في الحى خمسة دكاكين وأصبح أعظم تاجر في الديار .

أما أنا فقد أعطيت في اليوم الأول تلك العلبة لذلك السكران فكانت أول وآخر ماصدر من دكاني . ومرت أيام وأيام ، وتلتها شهور وشهور ، وتمت ثلاثة سنوات مجرمات^(٢) ، وأنا بتلك الحال أرافق التلف يدب في بضاعتي وأعاني السوس ينخر في إرادتي – وما الإرادة إلا كالسيف يصدؤها الإهمال ويشحذه الضراب والنزال – فدهشت وغضبت ثم صبرت وتعللت ، ثم يئست وسلمت ، فأهللت الدكان وطلقت التجارة ،وها أنا ذا أسائل عن المحكمة لأودعها الدفاتر والمفاتيح .

(١) ختمون .

(٢) السنة المجرمة الكاملة .

الشجاعة والعدوى

لا أحسب أحداً يجهل أن هناك فرقاً بين الشجاعة وحب الموت ،
كفرق بين الجبن وحب الحياة . فقد يهجم اليائس الموتور على حتفه ،
ويطرح بنفسه مطارات الهملة . وهو بعدُ الجبان المنخوب . وربما كان
هجومه هذا آية جبنه وجزعه . وقد يبرز الوحش الضارى للفارس
الصئول^(١) أو يدهمه القطار أو يسقط عليه الحجر العظيم فيتخاشاه
ويفر منه ..

* وهو الجرىء على الحمام الم قبل *

وإنما يحمد الإستخفاف بالحياة والإجتراء على الموت إن كان ذلك
الواجب تصغر الحياة فيها ، ويتحتم الموت لأجله . وأما فيما سوى
ذلك فلا واجب على الحى أقدس من واجب صيانة الحياة ودفع الموت
عنه ، ولا جناح عليه أن يحب البقاء أبد الدهر لو كان إلى البقاء
سبيل .

إن كان ذلك كذلك فلا فائدة لك ولا للناس في أن تدخل مع
جرائم الحميات والأوباء في وقعة مشكوك فيها . وأنت وحدك
وهي - أبادها الله وشتت شملها - قد شبّت على الاتحاد والتكاثر وإن
كانت في جو مصر ! فتهاجمك في الماء والهواء ، ومن بين يديك
ومن تحت قدميك ، وأنت لا تراها ولا تشعر بها . ونحن مع ما نعلم

(١) كثير الصيال .

من أن الحكومات تكافئ كل شجاع على استقبال الموت في حومات الوغى وبين نيران الحريق ، ما علمنا قط أنها علقت نوطاً أو وساماً على صدر أحد لأنه صارع الميكروب فصرعه وانتصر عليه . اللهم إلا إن كان بعض الأطباء قد يظفر منها بالنوط أو الوسام تنويها بنصره عليه وفتكه به . ولكنك خليق لا تغرك شجاعة هؤلاء الأطباء فانهم يحاربون الجراثيم وهى مكتوفة في الأنابيب ومخدرة بالعقاقير وليس هذا من أصول الحرب ولا من شروط المناجزة في شيء .

وأن من غرائب الخليقة وطرف العقول أن يكون بين إخواننا في الآدمية من تراه يقيم في وسط بؤرة تصعد منها رائحة البلى ، ويركذ فيها الهواء من ثقل ما على كاهله من القدر والقدى ، وتسمع فيها الميكروب كالذباب .

* هزجا يحك ذراعه بذراعه *

وينادى فيها عزربيل ليلاً ونهاراً : ألا من حى فازهقه ؟؟ ألا من نائمة فأسكتها ؟؟ ألا من تعب مكدوود فأحمله ؟؟ وير أمام بصره في تلك البؤرة مركبات الأموات حشيشة العدو من عالم الدنيا إلى عالم الآخرة .. وتقول له إنج يا صاحبى بروحك واسلم بعمرك . وقد يكون من مذهبك أن من ينتظر مثل هذه النصيحة من سواه غيرُ جدير بأن يُحرم الحفارُ أجرة قبره والبزارُ ثمن كفنه . فتغلظ على نفسك وتأخذك الهوادة في مذهبك وتنصحه بالرغم من ذلك فيقول لك : معاذ الله أن أخاف الموت أو أفر من قرب الله ... يقوها الملعون وكأنه يعتقد أن الله بعيد إلا عن تلك البؤر التي يفوح منها وتطرد

الملائكة وحاميتها . ويقولها الملعون وهو يجهل أن عمر بن الخطاب فر من الطاعون ، ولما لامه أبو عبيدة وقال له أتفر من قدر الله ؟؟ قال نعم إلى قدر الله ... وناهيك بعمر شجاعة وصبرا وإيمانا بالله واتكالا عليه .

ولو صاحب من هذه الطغمة - ولا عارف الصحبة - عثرت به في إحدى تلك البؤر فنصحته تلك النصيحة فكنت كائنا أخزه بها وخزا ، وإذا هو يزور عنى ويلوى كشحه ويقول : آننا أعبأ بالحميات والأمراض ؟؟ ومثلي يافلان يرضي أن يذاع عنه أنه أجمل من الموت ؟؟ وهل يدركنا الموت في مكان وينسانا في مكان ؟؟ وما كان ظنك بعقلى وأنت تناصح لي بالجلاء عن دارى التى ولدت فيها والانزام أمام عدو لأراه ؟؟ وأين ما عودتك فى من الجلد وعودتنى فيك من تشجيع الأصدقاء ؟؟ وو قلت حسبك ولكنى آسف ياسىدى على هذه الشجاعة الفائقة أن لا تتصدى بها لكل قوة من قوى هذه الطبيعة المغوررة بنفسها . وما بالك تستهزء بالموت بالجرائم كأنك تستصغرها ولا تستهزء بالموت غرقا أو حرقا أو صبرا^(١) وهذه القواطير والسيارات والترام كثيرة في البلد ، والناس يتبحون لها عن الطريق ويفرون منها كل مفر ، فما بالك لا تثبت أمامها وترىها أنك لست من هؤلاء الناس ؟؟ بل ما بالك لا تبالغ في احتقار الجرائم والزراية بها فتشرب قدحا من حمض الفينيك الذى يقتلها لترهن لها على أنك لا تعبأ بما يميتها . فكيف بها ؟؟

(١) الموت صبرا أى جوعا .

ولما رأيت أننى سأله بقدر ما سألهنى ، وأجبته بمثل ما أجبنى فصيلت^(١) من عنده وأنا أفكـر فـاقتراح أعرضه عـلى أولى الأمرـ : وهو أن تجـمع الحـكومـة أـفـراد هـذـه الطـغـمة وتـلـصـق بـوجـوهـهـم عـلامـة يـعـرـفـهـم بـهـا مـن يـراـهـمـ . حتى إـذـا وـقـفـ أحـدـهـمـ فـطـرـيقـ سـيـارـةـ أوـ تـرـامـ أوـ تـعـرـضـ أـمـامـ صـائـدـ يـطـلـقـ عـلـىـ هـدـفـهـ ، لمـ يـكـفـ الصـائـدـ يـدـهـ ، وـلـمـ يـتـعـبـ السـائـقـ فـيـ إـيقـافـ سـيـارـتـهـ أوـ تـرـامـهـ ، فـيـضـيـعـ مـنـ وـقـتـ الرـكـابـ دـقـيـقـةـ أوـ أـكـثـرـ لـإـنـقـاذـ حـيـاةـ هـانـتـ عـلـىـ صـاحـبـهـ إـلـىـ هـذـهـ الـدـرـجـةـ وـلـيـسـ هـىـ عـلـىـ النـاسـ بـأـقـلـ هـوـاـنـاـ .

مواضيع الملاحة

مهما تعمقوا في تعريف الملاحة ووصف محسن الوجه وقالوا فيها ما يشبه قولهم في السحر أو الروح واليوم الآخر ، فلا إخالها تُرد في بادىء أمرها إلا إلى إنها شارة في أظهر عضو من الجسم - أعني لوجه - كانت ولا تزال في بعض الأحيان تدل على فضيلة جنسية في جسم الرجل أو المرأة .

إن أظهر ما تظهر الملاحة من معارف الوجه في العين والشفة لأنهما الجارحتان اللتان ترتسـمـ فـيـهـماـ حـالـةـ النـفـسـ وإـحـسـاسـهـ بـغاـيـةـ الـوضـوحـ وـالـجـلـاءـ ، وـبـهـماـ تـخـلـفـ أـمـةـ عـنـ أـمـةـ وـجـنـسـ عـنـ جـنـسـ فالـعـرـبـ وـالـمـصـرـىـ وـالـصـينـىـ وـالـانـكـلـيزـىـ وـالـأـلـمـانـىـ وـغـيـرـهـمـ مـنـ الـمـلـلـ وـالـأـمـ يـتـأـثـلـونـ بـالـعـيـونـ وـالـشـفـاءـ . وـكـذـلـكـ الرـجـلـ وـالـمـرـأـةـ أـصـدـقـ وـأـوـجـزـ مـاـ

(١) أى خرجت .

يقال في هاتين الجارتين أنهما نافذة النفس فمنها تطل على العالم ومنها يطل العالم عليها . ولعل ما تكشفه هنا وللناس أكثر مما تكشفه من الناس لنا .

لابد من صلة محكمة دقيقة بين العين والرأس لأن نظرة العاقل غير نظرة المجنون وقل مثل ذلك في الغادر والأمين ، والفظ الوديع ، والسميم والسليم ، والشهوان والعفيف ، فإن لكل منهم نظره غير نظرة الآخر . أما صلة الرأس بالجسم وما يندفع فيها من الطبائع فمعلومة ملحوظة . فالعين بهذه المثابة هي عنوان صفة النفس ومزاج الجسد .

ولابد من صلة بين الشفة والإحساس لأن الشفة هي ملتقى أعصاب الوجه وهي أدق أعصاب الجسم . فلا تهيج في الجسم هائجة ولا تسكن به ساكنة إلا بدا لها أثر على الشفة . فتفتر أو تهدل أو تنقبض أو تقلص أو ترتجف . وترى الإحساس في الشفة يتوقف إلى مقابلة مثله لأن الإحساس يبلغ فيها أشدده - وهذا هو الميل إلى اللثام والتقبيل - نعم أن الأعضاء كلها تميل إلى الماسة ، ولكن الميل لا يكون إلا على قدر إحساس كل عضو . فلا تميل اليد إلى اليد كميل الشفة إلى الشفة لأن الفرق بينهما في الإحساس كالفرق بين المصادحة والتقبيل . وقد وضعت هذه الحساسية في الفم لأنه هو باب الجوف ، والجوف بحاجة إلى حاسة ظاهرة تجيد له حبس الأشياء قبل وصوها إليه . وقد نرى الأعمى لا يعتمد في حبس الأشياء إلا على شفتيه لأنه حين فقد البصر وأصبح معتمده على الحس وحده لا يشعر في جسمه بما هو ألطاف على المس من شفتيه .

فالشفة هي ترجمان الاحساس ومحبس العواطف . وإذا كان في الإنسان خاصة تتصل بالإحساس كان أخرى الجوارح أن تظهر عليه تلك الخاصة الشفة . فقليلًا ما يلتبس عليك الصابر الكظوم بالقلق الجوج أو الأريب الكيس بالحُمّيَّة الأبله ، من التأمل في شفاههم وهيئة أفواههم ، وإذا التبسوا عليك ساعة المدوء والصفو لا يلبسون ساعة الغضب والاهتياج .

ولرب وجه صبور جميل يروقنا استواء خلقه واعتدال تقسيمه ويحيرنا نقد معارفه وقسماته . ولكننا يؤملنا أن لا نتملى من ذلك الوجه بمحظ الاستحسان الذي شوّقنا إليه منظره . ووجه أقل منه جمالاً وصباحة وأخفى روعة ورواء وهو يسبينا ويثير بلا بلنا ويستولى على إعجابنا : وقد نسب ذلك أحياناً إلى اختلاف الأذواق أو خفة الدم ، ولو أنعمنا النظر في ذينك الوجهين لم يطل بحثنا عن السبب وعلمنا أن ما نسميه تارة باختلاف الأذواق وتارة بخفة الدم هو معانٍ تتضمنها العيون والشفاه ليست من جمال الصورة ، على أنها هي شطر الجمال الأكبر . وهي التي تفتقض على ذلك التناسب الهندسي الممول روحًا حيًا جذابًا .

إن لكل عضو جمالها الخاص به وجمال العيون والشفاه عام لا يجمل الجمال إلا به . ولو نظرنا إلى مزية في العيون والشفاه تجعل لها هذا الشأن في تقدير الجمال غير اتصالها بالإحساس ذلك الاتصال الذي المعنا إليه لما أبصرنا لها أى مزية سواها . فلماذا لا تقول أن الأصل في حب الجمال هو امتحان قابليات الجسم بأظهر جزائه للناظر ؟؟

أَفَ ذَلِكَ بَخْسٌ لِلْجَمَالِ؟؟ مَا الْجَمَالُ إِلَّا صِبْغَةٌ لَا تَفَارِقُ الْجَسْوَمَ ،
فَكَيْفَ نُوقْتُ بَيْنَ احْتِقَارِ الْجَسْمِ وَتَنْزِيهِ صِبْغَتِهِ؟؟

هَذَا كَلَامٌ لَا يَرْضِي بِهِ عُشَاقُ الْجَمَالِ وَلَا يَرْوَقُهُمْ أَنْ يَكُونُ حَبْرٌ
لَهُ نَوْعًا مِنْ حَبْسِ النَّبْضِ وَفَنًا مِنَ الْفَرَاسَةِ . فَإِنْ كَانَ إِرْضَاوُهُمْ لَابْدٌ
مِنْهُ فَلَيَذَكُرُوا أَنَّ جَمَالَ أَجْدَادِنَا لَا يَسْتَحْقُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ، وَأَنَّا لَمْ
نَرِثْ جَمَالَنَا وَعِوَاطِفَنَا مِنْ غَيْرِ أُولَئِكَ الْأَجْدَادِ .

الفهرس

الموضوع	الصفحة	الموضوع
أخلاق الفرد والجماعة	٣	مقدمة
الجماعات والأغnam	٦	خلاصة اليومية
جودة العالم	٦	كلمة
المضحكات	٧	الجامعة الإنسانية
الجمال والجلال	٧	الفضيلة والرذيلة
الاعتراف بالنقض	٨	إبطاط الشرق
الأطفال رجال صغار ..	٨	جنون النبوغ
المساواة في التجارة	٩	التشبيه الشعري
حماية العرض	٩	إرادة المصري
ثمرات اليراع	٩	بقايا الحيوانية في الإنسان
منظر على غير مرسح ..	١٠	العمل والأمل
تربيـة المرأة	١١	الفيلسوف
مذهب نيتـه	١١	الحسد
تغـير المـأـلـوف	١٢	المطالـعـة وـالـتجـارـب
الموت	١٢	الـشـعـر وـالـأـلـفـاظ
تواضع الملـوك	١٣	حب الـظـهـور
الأـثـرـة	١٣	الـتعـصـب الـديـنـي فـي الـسـتـقـيل
الـحـاجـات وـالـقـدـم	١٥	الـحـرـوب الـصـلـيـيـة
الـرـيـاء	١٧	الـتعـصـب فـي الـعـصـر الـحـاضـر
الـكـلـام وـالـأـوزـان	١٨	تـقـلـيدـ النـسـاء
الـعـالـم فـي نـظـرـ أـكـمـه	١٨	دـلـالـةـ القـصـصـ عـلـى درـجـةـ الـأـفـكـارـ فـيـ الـأـمـ
الـموـسـيـقـى	١٨	

الموضع	الصفحة	الموضع	الصفحة	الصفحة
نهاية الرق	٣٠	الضحت	٤٦	
الميراث	٣٠	البكاء	٤٧	
فراسة المرأة ..	٣١	الغنى والسعادة ..	٤٧	
التاريخ القديم ..	٣١	الحرية الشخصية وتقدير المراة		
الطلاق	٣١	الاقتصادية ..	٤٨	
تعدد الزوجات ..	٣١	القوة والأخلاق ..	٤٨	
أقدار الجد ..	٣٢	إلى مجلس الحسى ..	٥١	
التغريب	٣٢	الغاية وللاغية ..	٥١	
أحاديث الشبان ..	٣٢	الطب والشعوذة ..	٥٢	
أخرب ..	٣٢	عدم الاتكارات ..	٥٥	
الاستخدام ..	٣٦	مناقشة مع الأستاذ وجدى ..	٥٦	
العشق ..	٣٧	شبح البحر ..	٦١	
قطربا ندى على فسيلة قبر ..	٣٩	فاكهة النعام ..	٦١	
الألعاب غير الرياضية ..	٤٠	فنون الجنون ..	٦١	
النقد والسحاء ..	٤١	الناموس الأخلاق ..	٦١	
يقايا الميثولوجي ..	٤١	الحكومة في الشرق والغرب ..	٦٣	
الفضيلة المأجورة ..	٤١	في سالون حلاق ..	٦٤	
المبادئ ..	٤٢	الارتفاع ودلال النساء ..	٦٥	
الاعتماد على الذات ..	٤٢	طماينية اليأس ..	٦٦	
شرف المهنة ..	٤٣	الخنان لعلة ..	٦٧	
بماذا يشفى الشعراء ..	٤٣	الرأى العام ..	٦٧	
داء الحياة ..	٤٥	هواجس ما بين القبور ..	٦٧	
القول والقائل ..	٤٥	نقض اللغات ..	٦٩	
الآداب القدية ..	٤٥	اقتراء ..	٦٩	
الاصلاح الاجتماعي ..	٤٦	عشاء المدينة ..	٧٠	

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
وحش في غير لقب	٧٠	الرشوة	٩٠	الطريقة الإنسانية	٩٠
تربيتنا الدستورية	٧١	وحدة الحكومة	٩٠		
التنافس سلم الرق	٧١	القضاء والقدرة في الطبيعة	٩١		
اليليل	٧١	كلنا ننطوى	٩١		
السعادة في وهم الناس	٧٣	السعادة	٩٢		
احترام الضعف	٧٣	حرم الأوهام	٩٢		
الانخفاض أساس الرفعة	٧٣	عرض الحياة	٩٢		
فضل القراء على مدينة الإنسان	٧٣	سائلو بطرس باشا	٩٢		
أين موضع العجب	٧٤	الحر والخصب ينميان الأديان كا ينميان			
آداب الجاملة	٧٤	الأغصان	٩٣		
محك المعجزات	٧٥	ابن حمديس	٩٣		
حقيقة الشعور بجمال التصوير	٧٦	الشთاء في أسوان	١٠٠		
أعمار الموقى	٧٧	مساويء المدينة ومحاسنها	١٠٢ ..		
بنات أوربا على الإبل	٧٧	الغرام بالفلسفة القديمة	١٠٤ ..		
تقسيم الترکات	٧٧	البغاء	١٠٥ ..		
محادثة مع أخي الصغير امام البنك		جنایة الصناع على الصناعة	١٠٦ ..		
المصري	٧٨	الكاتب والشاعر	١٠٦ ..		
أين الحقيقة	٨٠	قاسم أمين	١٠٨ ..		
خلود الفنون	٨١	الحقول العامة والاستعمار	١٠٩ ..		
نقد الكتب	٨١	اللغة العربية	١٠٩ ..		
أسحار أيار	٨٢	مستقبل الشعر	١١٠ ..		
الانعطف	٨٦	عزاء إلى ضيف الشارع	١١٢ ..		
شعر حافظ	٨٧	إلى ساكنة الدور الخامس	١١٢ ..		
نوبة الحفقان	٨٨	أيها البدر	١١٢ ..		
الألياذة	٨٩				

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة	الصفحة
الشذور	١١٣	الصدى ونرجس	١٢٩	
الراحة	١١٣	اللؤم المكتسب	١٣١	
الغرور	١١٦	البخل	١٣٦	
نادى العجول	١٢١	اللغات والتعبير	١٤٦	
علم الاحترام	١٢٣	قوة الإرادة	١٥٠	
جمجمة الإنسان	١٢٧	الشجاعة والعدوى	١٥٧	
مواضيع الملاحة	١٦٠			



١٦- إيسن .
 ١٧- جحا الصاحل المصحدك .
 ١٨- أبو نواس .
 ١٩- الإنسان في القرآن .
 ٢٠- المرأة في القرآن .
 ٢١- عقري الإصلاح والتعليم الإمام محمد عبد .
 ٢٢- سعد زغلول زعيم الثورة .
 ٢٣- روح عظيم المهاجم عائضى .
 ٢٤- عبد الرحمن الكواكبي .
 ٢٥- رجعة أبي العلاء .
 ٢٦- رجال هرفتهم .
 ٢٧- سارة .
 ٢٨- الإسلام دعوة عالمية .
 ٢٩- الإسلام في القرن العشرين .
 ٣٠- ما يقال عن الإسلام .
 ٣١- حقوق الإسلام وأباطيل حضوره .
 ٣٢- التفكير فريضة إسلامية .
 ٣٣- الفلسفة القرآنية .
 ٣٤- الديمقراطية في الإسلام .
 ٣٥- أثر العرب في الحضارة الأوروبية .
 ٣٦- الثقافة العربية .
 ٣٧- اللغة الشاعرة .
 ٣٨- شعراء مصر وبيانهم .
 ٣٩- أثنيات مجتمعات .
 ٤٠- حياة فلم .
 ٤١- خلاصة اليومية والشذور .
 ٤٢- مذهب ذوى العادات .
 ٤٣- لاشيوعية ولا استعمار .
 ٤٤- الشيوعية والإنسانية .
 ٤٥- الصهيونية العالمية .
 ٤٦- أنسوان .
 ٤٧- أنا .



١- الله .
 ٢- إبراهيم أبو الأنبياء .
 ٣- مطلع النور أو طوال العنة المحمدية .
 ٤- شقيقية محمد .
 ٥- عقريقة عمر .
 ٦- عقريقة الإمام علي بن أبي طالب .
 ٧- عقريقة خالد .
 ٨- حياة المسيح .
 ٩- ذو التورين عثمان بن عفان .
 ١٠- عمرو بن العاص .
 ١١- معاوية بن أبي سفيان .
 ١٢- داعي السما ، بلاط بن رياح .
 ١٣- أبو الشهداء الحسين بن علي .
 ١٤- فاطمة الزهراء ، والقاطسين .
 ١٥- هذه الشجرة .

To: www.al-mostafa.com